محمد العلمي

كاترينا مرّت من هنا

يوميات العاصفة

منشورات
وزارة الثقافة

محمد العلمي

كاترينا مرّت من هنا

(يوميات العاصفة)

سلسلة نصوص ووثائق ـ محمد العلمي
الإيداع القانوني : 2011 Mo 0495
ردمـــــك : 978-9954-581-06-3
منشورات وزارة الثقافة 2011
سحـــب : مطبعة دار المناهل – 2011

تقديم

في غرناطة، قبل إثنتي عشرة سنة، التقيتُ الصديق محمد العَلَمي. كان صيتُه يَسْبِقُه كإعلامي يمتلك من الذكاء المهني وجرأة الاقتحام والروح المغربية الأخّاذَة ما كان يؤهله ليحظى بمحبة وتقدير الآخرين.

كنا مدعوين إلى ندوة فكرية إبداعية عربية انعقدت جلساتها في قصر الحمراء، وأشرف عليها الصديق الشاعر العربي الكبير أدونيس الذي شرفني شخصياً بالدعوة، والباحث الأنثروبولوجي الصديق عبد الله حَمُّودي الذي كان ذلك اللقاء فرصة أخرى لتمتين صداقتنا الإنسانية والثقافية والفكرية. وكان سي محمد العَلَمي، المدعو بدوره، قادماً من واشنطن كإعلامي، وكان وقتئذ صحفياً بارزاً في قناة أ.ن.ن الفضائية العربية. وعلى الفور سرى بيننا خيط الكهرباء الرفيع. لم نتعارف فقط، وإنما دَشّنَا معاً مساراً من الأُخُوة والصداقة والحوار العميق.

ولعل أهم ما نَتَج عن ذلك اللقاء هو تحفيز سي محمد على استثمار حِسّه الأدبي، لغته الصحفية الجميلة وروحه المُتَفَكِّهة التي تستثمر المداعبات والمواقف المفارقة، ليس في تأثيث استطلاعاته التلفزيونية فحسب، وإنما في الكتابة الصحفية على صفحات الجرائد المغربية. ولعل القراء اكتشفوه من جديد من خلال كتاباته ومراسلاته من واشنطن في صحيفة «الاتحاد الاشتراكي» أولاً وأساساً، ثم في صحف أخرى كالأيام والمساء.

كَبُرَتْ صورةُ العَلَمي كصحفي مهني وكمراسل قدير عندما التحق بقناة «الجزيرة» في مكتبها الرئيسي بالعاصمة الأمريكية. وكنت فخوراً به كصديق وكمصدر إعلامي مرجعي يومي وأنا أراه حيّاً على الشاشة ينقل انطباعاته الطازجة والذكية حول كبريات الأحداث الحية. وتفجؤني الضحكة وأنا أراه يتحدث بعربية جميلة يبدو حريصاً على نطقها ومخارجها المضبوطة، ذلك لأنني عادةً ما أتذكره في جلساتنا الخاصة وهو يسخر من تلك العربية الجاهزة القديمة التي ما زال يستعملها الكثيرون، خصوصاً عندما يكرر بعضاً من تلك الجمل المضحكة : «وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على . . . !» أو «وإن كنتُ أنسى لا أنسى . . !» وما إلى ذلك.

ولن أنْسَى صورته اللافتة وهو في موقفه الدرامي الشهير، وهو يستثير الجنرال الأمريكي المسؤول عن معتقل غوانتانامو، في حوار معه على القناة، مما اضطر العسكري الكبير أن ينزع من على صدره الميكرو الصغير ويغادر مكان اللقاء. خشيت حقاً على مصير العلمي، لكن الأمور انتهت بخير. وسعدتُ أن الإعلامي المغربي انفلت من الانفعال الأمريكي الطارئ.

ذكريات ولحظات كثيرة وعميقة تجمعني بمحمد العلمي، لكن الأساس فيها دائماً ظل متمركزاً حول الكتابة والقراءة. وها هو يخضع لإلحاح الأصدقاء أخيراً ويشرع في انتقاء وتجميع كتاباته المتفرقة كي تصدر في كتب. وها هي اللحظات المختلفة التي عاشها مواكباً لعاصفة كاترينا الشهيرة التي أغرقت مدينة نيو أورليانز الأمريكية، تلك المدينة المنخفضة التي أنشأها الفرنسيون فوق التراب الأمريكي وباعوها للأمريكيين في القرن التاسع عشر، كما هو معروف.

كتابة ناعمة، فيها من روح السخرية والمداعبة ما يبعث على الابتسام والألم معاً، وفيها من الخبرة الميدانية وحرص الكتابة الواصفة ما يؤهلها لترقى إلى رفعة الكتابة الصحفية الراقية، ولتغترف من روح اليوميات ومن نَفَسِ أدب السّفَر كي تغدو كتابة أدبية ممتعة.

إنني أُحِسُّ بأن في داخل العَلَمي أديباً مخدّراً نائماً ينبغي أن نوقظه بالمزيد من الإلحاح والتحفيز والصداقة. لو أنه يكتب فقط مسار حياته الشخصية في سيرة ذاتية لاكتشفنا خلف بسمته العريضة المُدَاوِمة تجربة حياة قاسية صنعت منه إنساناً نادراً في طيبوبته وانفتاحه وتسامحه، قادراً على العطاء والتضحية والتحمل في خدمة الآخرين.

والآن، ونحن نحتفي بصدور هذا العمل، ضمن منشورات وزارة الثقافة المغربية، نعلم أن كتاباً آخر له في طريقه نحو النشر، ويتضمن كتاباته المختلفة حول النسق السياسي الأمريكي كما عَرفَه وخَبِره وعاش عن قرب الكثيرَ من تفاصيله ومفاصله.

لقد بدأنا ننجح في أن نجعل محمد العَلَمي بدوره يعيد اكتشاف نفسه. وهذه خطوة أولى في الطريق الجميل المضيء. مرحباً به كاتباً وإعلامياً مشرّفاً.

حسن نجمي

كاترينا مرّت من هنا

(يوميات العاصفة)

في الطريق إلى هيوستن

كانت الرحلة الجوية في اتجاه مدينة هيوستن واحدة من أكثر الرحلات هدوءا وسلاسة رغم كون أنف الطائرة متوجها جنوبا إلى أقرب نقطة ممكنة من عين كاترينا أم الأعاصير. كان بعض ركاب الطائرة مثلنا من ممثلي الصحافة الأجنبية فرنسيين ويابانيين ممن لم يتعودوا على تغطية موسم الأعاصير الأمريكية على عكس زملائهم الأمريكيين. أشرت إلى هدوء الرحلة إلى كريس المصور الذي يرافقني مذكرا إياه برحلة الرعب الجوي التي عشناها معا أثناء عودتنا من غوانتانامو مطلع يوليوز. الطائرة المدنية التي كانت تقلنا من القاعدة الشهيرة مع بعض العسكريين والعمال المدنيين ومعظمهم من الأجانب - دخلت أجواء ولاية فلوريدا لتواجه عاصفة هوجاء عطلت أجهزة الرادار في القاعدة العسكرية التي كان من المفترض أن نحط فوقها. الطائرة حاولت الهبوط مرتين قبل أن تتلقى الأوامر بالصعود وسط سماء داكنة لا تقطع سوادها سوى خيوط البرق، ولا يعطل الصمت المطبق بين الركاب سوى أصوات الرعد المخيفة. سمح لنا بالنزول أخيرا في المطار المدني لمدينة جاكسون وكان واضحا من ردود فعل الناس على الأرض أنهم تعودوا هنا منذ أجيال على العواصف كبيرها وصغيرها أعطوا بعضها أسماء بينما أخذت منهم راحة البال في موسم يبدأ في يونيو ولا ينتهي إلا بانتهاء شهر نونبر من كل عام.

كنا نحاول الذهاب رأسا إلى مدينة نيو أورليانز هذه المدينة الأمريكية اللعوب التي بناها الفرنسيون تحت مستوى سطح البحر قبل أن يبيعوها للأمريكيين مطلع القرن التاسع عشر، لكن كاترينا أرجعتها إلى عهد ما قبل الوجود الفرنسي، وأعادت ملكيتها ولو مؤقتا إلى البحر. كاترينا أيضا أغلقت الملاحة الجوية في المنطقة، وجعلت إمكانية حجز غرفة في فندق أو سيارة تأجير في منطقة تبعد بأقل من خمس ساعات بالسيارة أمرا مستحيلا.

كان اختيار هيوستن أمرا طبيعيا أيضا للتزود بالوقود والماء والغذاء قبل التوجه إلى المناطق التي مرت منها كاترينا، وجعلت من تلك المواد فاصلا حقيقيا بين الحياة والموت في أغنى دولة عرفها تاريخ البشرية.

حطت الطائرة في المدينة البترولية وأكبر مدن الولاية التي حكمها جورج بوش قبل أن يتوجه إلى واشنطن ليحكم العالم، وأصر على البقاء فيها يقضي عطلته في مزرعته في بلدة كراوفورد رغم الدمار الهائل الذي خلفه الإعصار في ثلاث ولايات مجاورة.

كان الجو خارج الطائرة خانقا بحرارته ورطوبته، ازداد الإحساس به عمقا من خلال التطلع للوجوه الحزينة في كل أرجاء المطار. مضاعفات كاترينا وصلت هنا بالفعل وإن لم تصل بعد إلى الرئيس «الرحيم»، ربما لأنه يفتخر بعدم قراءته الصحف أو متابعة الأخبار التلفزيونية. المتطوعون في كل مكان ممثلو الصليب الأحمر ينتظرون مثلنا أمتعتهم على الأحزمة المتحركة، ويتساءلون مثلنا كيف يمكن للصحافيين ومتطوعي الإغاثة الانتقال إلى المناطق المنكوبة أسرع بكثير من الحكومة الفيدرالية.

على خلاف باقي الولايات تقريبا تشعر في تكساس أو على الأقل هذا الشعور يخامرني كلما زرت إحدى مدنها وكأنني في منطقة خارج الولايات المتحدة. ربما التاريخ المختلف لهذه الولاية التي كادت أن تصبح يوما جمهورية مستقلة قبل انضمامها إلى الاتحاد ربما بسبب البترول أو بسبب شساعتها الكبيرة أعطتها جميعا شخصية متميزة ولسكانها طابعهم الخاص من لكنتهم الإنجليزية المتميزة إلى نظرتهم الجماعية للحياة من عشق السلاح إلى قطع اللحم الضخمة. لكن كاترينا أظهرت جانبا جميلا في سكان هذه الولاية - أو لدى معظمهم على الأقل - حينما فتحوا بيوتهم كأفراد وملاعبهم الضخمة كولاية لإيواء النازحين الفقراء السود من ولاية لويزيانا المجاورة رغم أن ولاية تكساس كمدينة واشنطن تقع تحت سيطرة مطلقة للجمهوريين في جميع شعب السلطة الثلاث. هيوستن التي كانت لا تعلم أن جنين إعصار ريتا بدأ في التكوين في أعماق المحيط سيجعلها تجرب لحظات الانتظار القلقة بعد أيام قليلة كما عايشها سكان الأباما ولويزيانا ومسيسبي قبل فترة وجيزة. لكن المدينة كانت أكثر عدة واستعدادا من الحكومة الفدرالية في توفير الماء والدواء والعناق الحار لمجموعة من المنكوبين كان معظمهم من المعدمين حتى قبل زيارة كاترينا وجاء الإعصار ليحرمهم من القلة القليلة من ممتلكاتهم ويقلب حياتهم في بضع ساعات.

من المطار إلى الفندق كانت علامات بذخ المدينة بادية من عمارات شاهقة وطرق سريعة معلقة فوق بعضها البعض زادتها ثراء طفرة النفط الحديثة إلا أن بذخ الولاية الكبيرة لا يوظف على ما يبدو في تثقيف السكان المحليين في علوم الجغرافيا.

أحد عمال الفندق حينما سألني عن بلدي بدا واضحا أنه لم يسمع بالمغرب قط، وحينما ساعدته بالإشارة إلى شمال إفريقيا عاد ليتأكد مستوضحا إذا كان المغرب مسرحا للصراعات بين السود والبيض، فعدت لأؤكد لمحدثي أن الأمر قد اختلط عليه بجنوب إفريقيا. تلك المحادثة القصيرة ذكرتني بما دار بيني وأحد المتطوعين في مزرعة كرافورد بعيد الحادي عشر من شتنبر حينما ذهبت لأغطي زيارة الرئيس الروسي فلاديمير بوتن. كان المتطوع من بلدة كراوفورد الصغيرة وكان طيبا وبشوشا ويساعد كغيره من المتطوعين جيش الصحفيين الذي تقاطر على البلدة ذات المطعم الواحد في الانتقال بين المركز الصحفي الذي يتحول إلى مدرسة أثناء غياب بوش، والمطعم المجاني الذي أقيم خصيصا للزائرين من رجال ونساء الصحافة. أذكر أن ذلك العجوز الطيب استوقفني ثلاث مرات على الأقل ليسألني بابتسامة عريضة عن اسمي وفي كل مرة أرد عليه كان يبادرني بنفس السؤال في كل مرة «من أي منطقة من روسيا أتيت يا محمد ؟».

في الأسترودوم

كان نصف المقيمين في الفندق كمعظم فنادق هيوستن من اللاجئين، وفي فندقنا على الأقل كان معظمهم من النساء السود المتقدمات في السن. كانت الإعلانات تغطي واجهة الفندق عن مواعيد الوجبات ومواعيد الصلاة. قلت للمصور علينا أن نتعشى جيدا الليلة فربما قد تكون الوجبة آخر عهدنا بالمطاعم لعدة أيام. لم يتردد كريس رغم ميله أحيانا للتوفير والاكتفاء بالوجبات السريعة. اختيارنا للمطعم لم يكن موفقا بسبب الضجيج والمكالمات الهاتفية التي لم تنقطع. في طريق العودة إلى المطعم اشترينا عددا كبيرا من قارورات المياه واستأجرنا محركا لتوليد الكهرباء، ولولا التغطية الإعلامية المكثفة من حولي ما كنت لأصدق أني في طريقي لتغطية حدث داخل الولايات المتحدة.

عند مدخل الفندق التقينا زوجين شابين نزحا من نيو أورليانز غطى الوشم معظم الأجزاء الظاهرة من جسميهما الأبيضين. أكدا لنا أنهما يسكنان في الضفة الغربية للمدينة التي لم تصلها مياه الفيضانات، ولكنهما قلقين على مصير كلبيهما وإن كانا مطمئنين على سلامة محتويات البيت من أعمال النهب لأن «الشريف» أو قائد شرطة المدينة من النوع الذي يطلق النار قبل أن يوجه الأسئلة. سأعرف ما بعد أن هذا الشريف القوي وقف مع رجاله مشهري السلاح في الجسر الذي يربط بين الضفتين لوقف نزوح السود على بلدته البيضاء. العشرات قضوا نحبهم بسبب «حزم» هذا الشرطي الأبارتيدي.

الفقر والعنصرية ما زالا بخير وألف خير في المدينة الفاضلة التي يريد أن يعمم بوش وزبانيته قيمها الخيرة على باقي أنحاء العالم المنظور.

صبيحة السبت امتطينا السيارة في طريقنا إلى القاعة الرياضية المغطاة التي تحمل اسم فريق المدينة في رياضة البيزبول، الرياضة المفضلة لدى معظم أهل المدينة وباقي الأمريكيين.

ضللنا طريقنا في الشوارع شبه الخالية أكثر من مرة لكننا وصلنا أخيرا بمساعدة القلة القليلة من السكان الذين التقيناهم في الطريق.

طالعتنا القبة الضخمة لملعب الأسترودوم الذي تخلى عنه فريقه لصالح ملعب آخر أكثر ضخامة وحداثة وفتحته سلطات الولاية لإيواء سبعة عشر ألف نازح. سأعرف ما بعد أن الحكومة احتجت لدى وسائل الإعلام التي كانت تستخدم قبل ذلك صفة اللاجئين على ضحايا الإعصار. وجادلت بأن اللجوء يرتبط عادة بمناطق الحروب والنزاعات وليس الكوارث الطبيعية، لكن الخلاف اللغوي لم يخفف في شيء من معاناتهم وإن لم ير كثير منهم الفرق بين هذا التصنيف أو ذاك. بعض زعماء السود جادلوا بأن تصنيف النازحين كلاجئين كان يساعدهم أكثر ربما لأنه سيمكنهم من مساعدة عاجلة من الأمم المتحدة بعد أن خذلتهم حكومتهم.

ملعب الأسترودوم كان محاطا بجيش غفير من رجال الشرطة المحلية ومتطوعين من كل صنف وسن، وشاحنات إعلام علتها أطباق إرسال معاناة عبر الأقمار الاصطناعية لبقية المشاهدين في العالم. كان علينا التسلل خلسة من إحدى أبواب الملعب الخلفية بعد أن منعنا أثناء محاولتنا الدخول علنا من الباب الرئيسي. الطريق من المدخل الخلفي قادنا مباشرة إلى الطابق العلوي من القاعة الضخمة حيث مررنا بمئات الأسر التي افترشت الأرض أو ما تبرع به المواطنون العاديون جميعهم في حالة من الإرهاق والصدمة الجماعية تستعصي على الوصف. المشهد البانورامي من أعلى كان يحيل إلى عمليات الإخراج الهوليوودية الضخمة منه إلى واقع بشري في أغنى بلد في العالم. بحر من المواطنين الغالبية العظمى منهم من السود نائمون أو يتحركون بين الأسرة العسكرية التي وضعت في صفوف متقاربة على طول وعرض أرضية الملعب. أقر أنني لم أر في حياتي قبل ذلك اليوم قدرا مشابها أو حتى قريب من الدموع في مآقي معظمها أحمر من كثرة البكاء أو التعب أو منهما معا. كان الهم الأكبر لمعظم اللاجئين أو النازحين الذين فقدوا كل شيء هو البحث عن أخ أو زوج أو زوجة أو أطفال تركوا مع الأهل أو ضاعوا في فوضى الإجلاء المتأخر. كانوا يتجمعون حولنا بمجرد رؤيتهم لكاميرا التلفزيون التي أصبحت الوسيلة الوحيدة للبحث عن الضائع من الأهل بعد أن انهارت جميع أنواع الاتصال والتواصل. محاولاتي والمصور شرح كوننا محطة باللغة

العربية وسيكون من الصعب إن لم يكن مستحيلا على أهلهم تتبع تغطيتنا. لم نفلح في إقناع معظمهم بعد ما انعدمت الوسائل البديلة. أذكر شابة جميلة كانت تجلس في ركن حاملة صورة وحيدها تبكي في صمت رغم ضجة المكان والإعلانات عبر مكبر الصوت تعلن عن مواعيد الوجبات وزيارة ممثلي الصليب الأحمر أو وكالة الطوارئ الفدرالية أو تنصح بالتوجه إلى مكان معين لكل من يبحث عن أي شخص آخر.

سألت الأم الشابة عن ظروف اختفاء ولدها، أجابتني وعيناها الواسعتان تسقيان بشرتها السمراء كيف تركت الابن مع والديها اعتقادا منها أنه سيكون أكثر أمانا ولم تسمع من يوم الإعصار شيئا عن والديها أو ابنها..

أثناء تجوالنا بين هذا الهول من المعاناة تذكرت زيارة السيدة الأولى السابقة باربارا بوش إلى الملعب نفسه قبل أربع وعشرين ساعة فقط على وصولنا إليه. السيدة بوش زوجة الرئيس الأسبق وأم الرئيس الحالي والتي نجحت في تسويق صورة الزوجة والأم التقليدية الحنون لم تجد ما تقوله أمام هذا المشهد سوى أن هؤلاء الأشقياء ربما أصبحوا أفضل حالا الآن لأنهم في نظرها لم يكونوا يملكون شيئا أصلا. معربة عن رعبها من إمكانية قرارهم البقاء في تكساس.

وكان العيش بدون أهل أو ممتلكات وسط سبعة عشر ألف جار... شيء جميل في نظر السيدة الأرستقراطية.. وكأنها كانت تقرأ ردود فعل القصر الملكي خلال الثورة الفرنسية.

جورج بوش الابن البار الذي يعلن بمناسبة وغيرها حميمية علاقته بأسرته كان يقرأ على ما يبدو فصلا من أمير ماكيافيلي حينما نأى بنفسه عن تصريحات أمه حتى لا يزيد من غضب الرعية.

في الطريق إلى نيو أورليانز

كان الكلام قليلا بيننا في السيارة بعد يوم مرهق في هيوستن، وكانت قصص المعاناة أكثر من القرى الذي يمكن تجاوزه بسرعة أو التعامل معه «بحيادية»، حاولت الاستسلام إلى النوم دون جدوى كانت الصور تتراقص أمام عيني، والكلمات والمشاهد تنافس مشهد الطريق المتسارعة من أمامي.. رائحة الوقود الإضافي الذي اشتريناه استعدادا للنقص أو قل الانعدام الكامل في نيو أورليانز حوّل رائحة السيارة إلى أمر لا يطاق. تكلمت مع زوجتي قبل الخروج من مشارف مدينة هيوستن خشية تعطل التلفون المحمول كلما اقتربت من غزوة كاترينا. حذرتني الزوجة من مغبة التدخين في السيارة بسبب كل ذلك الوقود داخلها لكنني أخفيت عنها كوني كنت أدخن لحظتها.. كانت رائحة السجائر أرحم بكثير من رائحة الوقود. حاولت البحث عن محطة إخبارية في مذياع السيارة لكنني لم أجد إلا محطة دينية يدعو بعضها للتبرع للضحايا والتفكر في قَدَرِ الله وإيجاد أعذار لحكومة الرئيس بوش لأنها تفعل كل ما تستطيع..

كانت الطريق مليئة بالشاحنات المحملة بالوقود وحركات توليد الكهرباء والماء والزوارق، وبين الفينة والأخرى تمر قوافل الجيش أو مواكب طويلة لسيارات الشرطة من مختلف الولايات المجاورة في طريقها إلى نيو أورليانز حيث انهار القانون تماما.

كنت أتابع عمليات النهب والسلب على شاشات التلفزيون الليلة السابقة في غرفة الفندق، وتابعت بالفعل تغطية عميقة لبعض وسائل الإعلام الأمريكية التي فقدت مؤخرا الكثير من عنفوانها وجرأتها. بعض وسائل الإعلام وكأنها تكفّر عن خطيئة تغطية العراق انهالت على حكومة الرئيس بوش، وساهمت بشكل كبير في تراجع شعبيته وتحسيس الرأي العام بجسامة المصاب. إلا أن بعضها خاصة المحسوب على اليمين اختار المسؤولين المحليين كهدف

لصب جام غضبها، في حين كان بعضها الآخر عنصريا بطريقة أكدت أن حملة الحقوق المدنية في الستينات لم تقض نهائيا على تلك العادة البغيضة التي كانت سرية إلى أن فضحتها كاترينا. الناهبون البيض كانوا يوصفون بأنهم يبحثون عن المواد الغذائية في مدينة تعطل فيها كل شيء في حين كان اللصوص السود وإن حملوا الماء والمواد الغذائية نفسها يوصفون ببساطة باللصوص والناهبين.

مع اقتراب منتصف الليل ولم نقطع سوى نصف المسافة الفاصلة بين هيوستن ونيوأورليانز بدأ التعب يأخذ منا مأخذه، كنا قد دخلنا ولاية لويزيانا على بعد ساعة ونصف من عاصمتها باطون روج أو العصا الحمراء.. كان واضحا أننا دخلنا إحدى المستعمرات الفرنسية السابقة بأسمائها ومطبخها وعمرانها وحتى فسادها الإداري الأثير، وربما قليلا من عنصريتها أيضا. أثناء تفكيري في الطالع المنحوس لهؤلاء السود الفقراء تذكرت حريقي ضواحي البؤس الباريسية حيث قتل حرقا ثمانية وأربعون ضحية من السود الأفارقة من أصل ثمانية وأربعين قتيلا في الحريقين معا.. أن تكون فقيرا وأسود في الحضارة الغربية هذه الأيام، فإنك ترتكب جناية عقوبتها الإعدام حرقا أو غرقا..

على مشارف باطون روج عاصمة لويزيانا التي تضاعف سكانها خلال ثمان وأربعين ساعة، وأخذت مكانة نيو أورليانز كأكثر مدن الولاية كثافة بالسكان طالعتنا لوحة إعلانية على جانب الطريق تذكر المسافرين بأن المخرج القادم يتوفر على آخر فندق على الطريق خلال الأربعين ميلا القادمة.. لم نحتج إلى نقاش طويل بيننا قبل اتخاذ القرار بالتوجه إلى ذلك الفندق لأن ذلك قد يكون فرصتنا الأخيرة للعثور على مكان للمبيت كلما توجهنا جنوبا نحو المناطق المنكوبة. كان العثور على الفندق الوحيد في البلدة الصغيرة أمرا هينا. استقبلتنا المضيفة الشابة التي لم تتجاوز العشرين بابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة البياض في وجه أسمر جميل.. قالت المضيفة الحسناء - والابتسامة لم تفارق محياها - : آسفة ليست لنا غرف .. الفندق مليء عن آخره ومحجوز لعدة أسابيع قادمة.. سألتها إن كانت هناك فنادق أخرى في المنطقة وبنفس الابتسامة وبنفس السلبية أجابت مسرعة لا.. أبدا.

رغم أننا كنا مستعدين نفسيا للمبيت في السيارة بعد أن تأكدنا قبل مغادرتنا واشنطن أن الفنادق منعدمة في المنطقة إلا أن فكرة الشروع في تنفيذها من الآن وسط روائح الوقود المقززة

بدت لي صعبة للغاية.. قلت للمضيفة الحسناء بلهجة امتزجت فيها السخرية بالتعب: على أي حال أشكرك كثيرا على مساعداتك القيمة.. انفجرت ضاحكة معتذرة ومضيفة بأنها ليست مسؤولة عن انعدام الغرف في الفندق المليء عن آخره بالنازحين.. ونحن نهمّ بالخروج محبطين، قالت المضيفة الشابة لما لا تذهبا إلى كنيسة البلدة التي لا تبعد إلا بخطوات عن الفندق... مؤكدة أن المشرفين عليها لا يردون أحدا.. تبادلنا النظرات أنا والمصور.. فكرة جيدة.. لم تكن لنا في الحقيقة أفكار بديلة لا أفضل ولا أسوأ.. شكرنا المضيفة الشابة وتوجهنا نحو الكنيسة. كان الوقت قد تجاوز بكثير الواحدة صباحا.

محمد في الكنيسة

كانت الكنيسة في نهاية شارع صغير مظلم عبارة عن بناية عادية من الخشب كمعظم ما ظهر من البيوت في الشارع المظلم. كان واضحا أيضا أنها غير كاثوليكية على خلاف المذهب السائد في لويزيانا بسبب التأثير الفرنسي، ولكنها كباقي الأغلبية الساحقة من كنائس الجنوب الأمريكية من المذهب المعمداني. استقبلنا اثنان من القائمين على الكنيسة، وكانوا بلباس «مدني»، كانا يدخنان السجائر بجانب الباب في تلك الليلة الرطبة الحارة. كانا كما أكدت لنا مضيفة الفندق غاية في الترحاب واللطف. حاولت الشابة مساعدتى على حمل بعض أغراضي إلا أنني اعتذرت شاكرا معربا عن الامتنان لأريحيتهم غير المشروطة. بمجرد دخولنا شرعت الشابة الشقراء وزميلها في نفخ سريرين من البلاستيك، وأحضرا من الداخل ملاءات ووسائد، وفي بضع دقائق كان الفراشان جاهزين في غرفة الأطفال التي علت حيطانها رسوم خفيفة.

كانت جرعة القصص المأساوية التي سمعتها ذلك اليوم أكثر مما كنت قادرا على احتماله ووجدت صعوبة في الخلود للنوم رغم الإرهاق الشديد الذي كنت أحس به. حاولت أن أرجع بذاكرتي لبضعة أسابيع فقط حين قضيت عطلة غاية في الجمال بين الأهل والأصدقاء في المغرب. تذكرت الوجوه الجميلة في غروب أصيلا ودرويش يحن إلى قهوة الأم في سيارة صديقي حسن نجمي في مدينة مراكش وقد هبت عليها عاصفة سريعة في عز غشت. كان صدى الضحكات العالية ما زال يتردد في ذهني، وبدا وكأن تلك اللحظات حدثت قبل سنوات ضوئية بعيدة.

كانت فترة ضرورية لإعادة شحن البطارية العاطفية في فصل صيف لم أكن أتوقع أن تكون أحداثه بهذا الزخم والعمق.

قادني تفكيري إلى غوانتانامو وإلى الراقدين هناك في مثل هذا الوقت يحذوهم القليل من الأمل في أن تصغي لمظالمهم حكومة تجد صعوبة في التجاوب مع استغاثة مواطنين من بني جلدتها. تذكرت المغربي محمد العلمي القابع هناك منذ أكثر من ثلاث سنوات، وكيف تأخذ الحياة مناحي توزع من خلالها الأدوار تماما كما فعلت كاترينا، فاختارت بيوتا دون غيرها ومطاعم دون غيرها.

لا أذكر متى استسلمت للنوم لكنني استيقظت مبكرا بحثا عن إمكانية أخذ حمام قبل الطريق الى نيو أورليانز لكن أملي خاب حينما أخبرتني سيدة عجوز طيبة بعدم وجود الحمام، إلا أنها أرشدتني إلى كومة كبيرة من المواد الغذائية والملابس التي تطوع بها أهل البلدة، وطلبت مني أن آخذ بعضها لتوزيعها على المحتاجين. أخذت ما أمكن وضعه في السيارة المكتظة أصلا. كان من بينها صندوق كامل من الوجبات العسكرية الجاهزة أصرت على إهدائه لنا، ووفر بالفعل أمانا نفسيا لبعض الوقت ضد إمكانية المعاناة من الجوع في بلاد التخمة.

في الطريق إلى نيو أورليانز حاولنا ملء بطوننا بالغذاء وخزان السيارة بالوقود عند كل مكان توفر فيه غذاء أو وقود. مع الاقتراب من المدينة بدأت تلوح علامات الدمار بين الغابات التي انحنت أشجارها في اتجاه واحد مستسلمة لرياح كاترينا القوية. رجال الشرطة والجيش في أولى نقاط التفتيش عند مدخل المدينة المقفلة، منعونا من المرور مؤكدين أن سيارات الإغاثة والجيش والشرطة هي الوحيدة المسموح لها. اضطررنا للسير وراء قافلة السيارات والشاحنات غير المرغوب فيها، لكننا وجدنا شرطيا وحيدا يحرس مدخلا ثانويا نحو المدينة سمح لنا بالمرور بمجرد سماعه أننا من الصحافة حتى وإن لم يتأكد من هوياتنا الشخصية أو المهنية.

سابقنا الريح نحو مطار المدينة، وسط طريق سريع، شبه فارغ، باستثناء سيارات الجيش والشرطة تحيط به مشاهد الدمار من الجانبين. كانت معظم المشاهد إن لم تكن كلها صعبة التصديق، وتحمل على الاعتقاد أحيانا أنك تشاهد مقدمة لنهاية العالم أو أنك تشارك في إخراج سينمائي ضخم ساهمت الطبيعة في وضع ديكوره القاتم.

وصلنا مطار المدينة حوالي منتصف النهار لكن المطار كالمدينة توقف منذ عدة أيام عن دوره الذي أنشئ من أجله. المطار تحول إلى قاعدة جوية تحت ضغط وسائل الإعلام وعقدة الضمير السياسي في واشنطن، حركت الحكومة الفدرالية كل إمكاناتها الهائلة لتنظيم أكبر عملية إجلاء داخلية في تاريخ الولايات المتحدة. كانت الطائرات العسكرية من كل حجم ونوع تنقل إلى المطار أكثر من أربعة وعشرين ألفا من سكان نيو أورليانز من على سطوح البيوت الغارقة بعد أربعة أيام بدون ماء أو غذاء. كان موظفو الإغاثة يقدمون للنازحين قارورات مياه بمجرد نزولهم وكان معظمهم يشربها دفعة واحدة فيما بدا التعب والارهاق على الجميع.

في بهو المطار رمقت زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ بيل فريست، الطبيب الجراح الوحيد بين المشرعين في المجلس، حيث تطغى التخصصات القانونية. فريست الذي يتعرض حاليا لعملية تحقيق بسبب بيعه مستندات بأيام قليلة قبل تراجع قيمتها قد تؤثر سلبا على طموحه السياسي، جاء إلى المطار كما أكد لي كطبيب وليس كسياسي.. مصرا على إجراء مقابلة قصيرة على هذا الأساس.. سألته بالفعل أسئلة متعلقة بملاحظاته كطبيب وإن لم أستطع التخلي عن الاعتقاد بأنه هنا لمساعدة الضحايا ومساعدة نفسه أيضا أمام كاميرات التلفزيون بلقطات قد تعبر ولو مسافة قصيرة من الطريق المؤدية إلى البيت الأبيض.

في مدينة نيو أورليانز

كارثة العلاقات العامة التي خلفتها كاترينا كانت بادية في ردود فعل البيت الأبيض الذي لم يفعل شيئا، وحينما قرر فعل شيء ما ظهر مبالغا أو غير صادق في فعله. نجوم الحكومة تقاطروا على المدينة الواحد تلو الآخر بمن فيهم وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس التي حطت بطائرتها قبل أن نغادر المطار. جاءت رايس السيدة السوداء لتدافع عن اتهامات حكومتها بالعنصرية مؤكدة بطلاقتها ولون بشرتها أن الاتهامات غير صحيحة. لكن ما خلفته كاترينا من مرارة ودمار أعمق بكثير مما قد تصلحه بضع طائرات عسكرية أو خطب رنانة.

كاترينا تصرفت كجنرال عسكري داهية خطط لضربته بدقة متناهية. كان الجميع يتوقع أن تضرب نيو أورليانز بطريقة مباشرة إلا أنها حولت اتجاهها في آخر لحظة لتدمر الأجزاء الساحلية من ولايتي الأباما وميسيسيبي، واكتفت بهدم بعض الأجزاء من الجدران الواقية للمدينة. الدمار الكامل فضح الفقر والعنصرية لكنه فضح أيضا عدم كفاءة كبار المسؤولين الحكوميين الذين تبين أن الزبونية وليس الخبرة سبيلهم إلى المناصب العليا في حكومة الرئيس بوش بطريقة لا تختلف عما تنتقده في دول العالم الثالث.

المسؤول الأول عن وكالة الإغاثة الفدرالية جاء إلى رأس هذه المصلحة الفدرالية الخطيرة بعد خبرته الطويلة كحكم في سباق الخيول العربية، ولكن بعلاقات صداقة متينة. قبل ثلاثة أيام من «استقالته» من منصبه خاطبه الرئيس بوش قائلا «إنك تقوم بعمل جبار».

من مظاهر ذلك العمل الجبار هو إقرار السيد براون على شاشة التلفزيون عدم علمه بوجود حوالي عشرين ألف نازح في قصر مؤتمرات المدينة رغم أن صورهم كانت على جميع شاشات العالم.

الصحافة الأمريكية التي عادت إلى تغطية أخبار الجريمة واختفاء النساء في ظروف غامضة، استفاقت مع كاترينا على كذب الحكومة وأدت فضيحة السيد براون إلى اكتشاف «براوانت» آخرين في الحكومة الجمهورية نالوا المناصب العليا ووفاء الرئيس المطلق جزاءً لهم على علاقاتهم وقربهم من أقارب الرئيس العائليين أو الإيديولوجيين.

لكن أسوأ ما دمرته كاترينا هو صورة الأمريكيين عن أنفسهم بكل ما في تلك الصورة من تفاصيل غذتها على مر الأجيال وسائل الإعلام وخطب السياسيين الميالة للمبالغة.

كاترينا لم تزعزع ثقة الأمريكيين في حزم وزعامة رئيسهم فحسب بل زعزعت ثقتهم في أنفسهم بعد اكتشافهم أمراض مجتمعهم بعد أن رفعوا ذلك المجتمع إلى درجات القداسة.

كاترينا وجهت اهتمامهم أيضا إلى إفلاسات هذه الحكومة في حرب العراق بدون أي أفق متوسط أو بعيد المدى لتحقيق وعود الديمقراطية والاستقرار والازدهار بل لم تساعد حتى في خفض أسعار الوقود في محطات البنزين المحلية.

الشعور باليتم السياسي لدى قطاع واسع من الشعب الأمريكي ازداد عمقا ومأساوية حينما عجز الديمقراطيون عن توفير بديل يتجاوز الانتقادات اللاذعة.

السود هنا يصوتون بأغلبية ساحقة للديمقراطيين، الأمر الذي لا يشجع الديمقراطيين على بذل جهود كبيرة للحفاظ على مودتهم في حين لا يكلف الجمهوريين أنفسهم حتى عناء المحاولة.

الحرب امتصت الموارد المالية والبشرية، وامتصت أيضا من الحزب الديمقراطي وزعامته كلا من الأفكار والزعامة.

الديمقراطيون الذين صوتوا ضد حرب الخليج الأولى ندموا على تصويتهم خلال عقد التسعينات حينما نجح الجمهوريون في تصويرهم كضعاف في قضايا الأمن الداخلي، وبمجرد أن «أتيحت» الفرصة مرة أخرى لخوض حرب ثانية ضد صدام حسين، سارعوا للتكفير عن خطيئتهم. انهيار الحرب ومبرراتها وتغير أهدافها منح الديمقراطيين فرصة لانتقاد خصمهم الجمهوري اللذوذ، لكن تصويت معظمهم على الحرب حرم خطبهم من المصداقية والقوة الأخلاقية

وحينما جاءت كاترينا كانت البلاد في شلل سياسي شامل برئيس يخوض حربا مكلفة في العراق، وأخرى وهمية ضد الإرهاب، ويصر على تخفيض الضرائب في الوقت نفسه لمساعدة الأغنياء من حزبه والمتعاطفين معه، ومع ذلك يجد الديمقراطيون أنفسهم وشعبية مشرعيهم تنافس شعبية الرئيس في الانحدار.

في الحي الفرنسي

غادرنا المطار مع حلول الظلام في اتجاه وسط المدينة أو في الأجزاء اليابسة منها على الأقل. كانت عمليات النهب قد توقفت لكن آثارها بادية في كل مكان. أجهزة تلفزيون مكسرة ملقاة في قارعة الطريق، ملابس وأحذية جديدة لكل الأعمار سقطت من «أصحابها» أثناء هرولتهم من عيون الكاميرات التي نابت عن رجال الشرطة في تعقب وتسجيل الانهيار التام للقانون. نيو أورليانز التي تحمل لقب عاصمة القتل في الولايات المتحدة حيث يقتل حوالي ألفي شخص سنويا، وبها أغلب نسبة من البطالة والسود والفقر في الولايات المتحدة كانت أمينة لتلك السمعة. أحد كبار ضباط الشرطة سمع معلقا على بقاء جثة قتيل في الشارع لبضعة أيام «إذا كان أحدهم يريد قتل خصمه في نيو أورليانز، فإن الفترة الراهنة تعد فرصة ذهبية»، نيو أورليانز تعرف منذ أجيال بأنها عاصمة الفساد الإداري في الولايات المتحدة. جهاز الشرطة فيها تعرض لأكثر من مرة لعمليات تحقيق واسعة من الأجهزة الفيدرالية. الشرطة هذه المرة كانت وفية لتلك السمعة إذ شارك بعض رجال البوليس في عملية النهب عوض وقفها في حين قرر بعض رجال الأمن البقاء في بيوتهم خوفا على عائلاتهم أو خوفا من خصومهم.

أثناء تيهنا في شوارع المدينة التي بدأت أطلالها تسكن للخيوط الأولى من الظلام وجدنا أنفسنا أكثر من مرة نسوق في الاتجاه المعاكس وتقابلنا سيارة شرطة أو جيش ونكتفي بتحية بعضنا البعض من وراء زجاج السيارة.. قانون السير توقف هنا حتى إشعار آخر..

مع سقوط الظلام بدأت الرحلة إلى وسط المدينة الموحشة تبعث على قدر غير قليل من الخوف، لأن كاترينا علقت كل مظاهر العقد المدني بين السكان والزائرين بعد أن انهارت السلطات الطرف الرئيسي في ذلك العقد. الأوامر للعسكر والشرطة كانت واضحة وصريحة وقاتلة. أطلقوا النار على كل مشتبه في قيامه بأعمال نهب وتحققوا من الأمر فيما بعد. المدينة الغارقة والمظلمة كانت تعيش خلال هذه الأيام الأولى بعيد كاترينا على إشاعات مرعبة تبين

فيما بعد أن معظمها غير صحيح من قبيل إطلاق النار على طائرات الهليكوبتر، وعمليات قتل عشوائية واغتصاب المراهقات وحتى الأطفال في ملعب المدينة وقصر مؤتمراتها.

تتبعنا ضفة نهر الميسيسيبي الذي كان مصدر سحر وازدهار المدينة وخرابها في اتجاه الحي الفرنسي القلب النابض للمدينة - وإن كان يعاني الآن من سكتة مائية - كان فندق الشيراتون البناية الوحيدة في الحي، وفي المدينة بأسرها الذي يشير إلى وجود بعض من الحياة بسبب الأنوار المنبعثة من نوافذه بسبب المولدات الكهربائية الضخمة.

وصلنا الفندق المرتفع وسط المدينة، وعلى بعد أمتار قليلة من مياه الفيضانات. وسط الشارع الفاصل بين فندقي شيراتون والماريوت حطت وسائل الإعلام بكل ثقل شاحناتها وضجيج مولداتها الكهربائية، وأنارت على الأقل شارعا وحيدا في المدينة في معرض إنارتها وجوه المراسلين الذين لم تتوقف رسائلهم المباشرة على مدار الأربع وعشرين ساعة.

كانت الجزئية السعيدة والفريدة في هذا الخضم من الدمار هو أن الهاتف النقال كان يعمل في بعض نقاط الشارع، فرضت علي الضرورة حفظها كلما أردت الاتصال أو سماع رسائلي المسجلة. اتصلت بأحد أصهاري الذي كنت أعرف أنه يسكن غير بعيد من الموقع مؤملا النفس في المبيت في بيته وإن لم يكن فيه ماء أو كهرباء. وجدته أخيرا قد استقر مؤقتا في مدينة ليتل روك في ولاية أركنسو بعد أن هرب من المدينة خوفا من اللصوص وليس من الماء. خلال الحديث تبين لي أن كلا منا يبكي على ليلاه. كان القريب يريد مني أن أطمئن على بيته وإن رحب لغويا بفكرة المبيت فيه إلا أن عائقا صغيرا يحول دون ذلك لأن المفاتيح توجد معه في ولاية أركنسو. توجهت مع المصور وسط الظلام الحالك نبحث عن الشارع وسط خراب كامل هذه المرة بسبب أعمال النهب والسلب وربما الانتقام. بعض السكان الغاضبين دخلوا جميع المطاعم والفنادق الموجودة في تلك المنطقة، ورموا جميع محتوياتها في الشارع. كل ما يمكن أن تتصوره من محتويات تلك البنايات كان ملقى وسط الطريق، وكان علينا أن نتحرك بسرعة بطيئة حتى نتجنب الكراسي والثلاجات والأواني الزجاجية التي تراكم بعضها فوق بعض. من حسن حظ قريبي كانت العمارة التي توجد فيها شقته الحد الفاصل بين النهب والسكينة. كانت البناية محاطة بسياج مقفل وبدت وكأن سكانها تخلوا عنها في عجلة من أمرهم إلا أنه لم يبدو أن أحدا حاول الدخول بعد رحيلهم للعبث بممتلكاتهم.

اتصلت مرة أخرى بقريبي وطمأنته على سلامة ممتلكاته إلا أنه عاد ليطلب مني أن أطمئن على أحد معارفه وهي سيدة عجوز تسكن في عمارة مجاورة لم يسمع منها أحد منذ يوم الإعصار.

كان شارعها من المناطق التي غمرتها المياه، وحينما حاولت إبلاغ رجال الشرطة كان واضحا أنهم لا يريدون سماع أي شيء، وكان كل واحد منهم يحولني إلى الآخر إلى أن تطوع آخرهم بالاتصال بجهازه اللاسلكي، وأعطى أحدهم عنوان السيدة العجوز أو هذا ما كان يريد مني أن أعتقده على الأقل.. في اليوم التالي توجهت إلى عمارة السيدة إلا أنه كان مقفلا ولم أعرف أبدا مصيرها.

ليلة في شارع بين فندقين

باءت المحاولات بإيجاد غرفة في الفندق المضيء الوحيد في المدينة بفشل سريع بعد أن أخبرني أحد الجنود المدجج بالسلاح بأن الفندق بكامله حكر على موظفي الحكومة الفدرالية، مدنييها وعسكرييها. مقابل الشيراتون انتصبت عمارة فندق الماريوت مظلمة وصامتة إلا من بعض الحركات الروتينية لحراس الأمن الخاص بالفندق احتراسا من أي أعمال نهب قد لا تحدث أبدا بعد أن رحل معظم سكان المدينة أخيارها وأشرارها على السواء.

استسلمنا لقدر المبيت في الشارع الكبير بين الفندقين الكبيرين بعد أن غامرنا بإخراج قنينتي الوقود الإضافتين، وسندفع ثمن مجازفتنا بعد اختفاء إحداها في ظروف غامضة وإن كانت متوقعة. كاترينا نجحت في إعادة الإنسان هنا إلى غرائزه البدائية الأولى حتى العمل الصحفي هناك عاد إلى بداياته بعد أن تعطل العمل بالوسائل التقنية المساعدة، وأصبحت لا تصف إلا ما تراه وبالإمكانات شبه البدائية المتوفرة لديك.

اعتذرت للمصور الذي لا يفهم اللغة العربية، ووضعت في مسجل السيارة شريط محمود درويش الذي أهديته لنفسي من سيارة الصديق حسن نجمي لأحن لقهوة أمي أنا أيضا وإن كانت أمي تفضل الشاي دائما.. كان شعره وصوت فيروز الملائكي وهو يصدح في ذلك المشهد السريالي بأبيات من مختارات الشعر الأندلسي أفضل مؤنس في تلك البقعة من نهاية العالم.

كان النوم ولو في سيارة وسط الشارع، وفوق الخط الحديدي لعربات الترام أخف بكثير مما كان يجربه آخرون فقدوا كل شيء يملكونه، وما كان يؤثث ذاكراتهم من الأشياء الصغيرة، وبعضهم فقد أعز ما لديه من أهل وأصحاب. كانت السيارة نفسها على بعد أمتار معدودات من بقية أجزاء المدينة حيث كان يتحدث عمدة المدينة عن احتوائها لأكثر من عشرة آلاف جثة. هذا الرقم المخيف تبين فيما بعد أنه كان مبالغا فيه كالعديد من التقديرات الأولية لكن فكرة

النوم بالقرب من تلك المقبرة المائية الهائلة كان يبعث على الكثير من المشاعر المختلفة، وكانت تتواضع معها كل المشاكل الحياتية الصغيرة التي كنت أحملها معي.

من الواضح أيضا أن تلك المعاناة اليومية الصغيرة للصحفيين الأمريكيين بالخصوص جعلتهم يجربون بطريقة مباشرة مضاعفات تلك الحكومة في إسعاف مواطنيهم إلى درجة فقدان بعضهم لتوازنهم أمام الشاشة. أحد نجوم «سي إن إن» بكى على الهواء مباشرة وهو يصرخ في أحد المسؤولين الفدراليين مبلغا إياه بأن الجرذان تأكل جثث المواطنين القتلى في حين يحاول تبييض وجه الحكومة بالإشادة بجهودها. حاكم ولاية ميسيسيبي وهو جمهوري محافظ حتى النخاع رد على أحد أسئلة ذلك الصحفي نفسه «هل هذه مقابلة أم تحقيق بوليسي؟» صحفية محلية كانت تستجوب أحد الناجين الذي أجهش بالبكاء لفقدان زوجته في الطوفان مؤكدا وسط النحيب بأنها كانت أعز ما في حياته.. لم تتمالك الصحفية نفسها، فأجهشت هي الأخرى بالبكاء. عمدة بلدة قريبة من نيو أورليانز حكى لمحدثه على شبكة «إن بي سي» عن قصة المسؤول الأول عن الإغاثة في البلدة الذي كان يتصل بأمه العجوز يوميا مؤكدا لها أن المساعدة في طريقها إلى دار العجزة التي كانت تقيم فيها. قال لها إن المساعدة ستأتي يوم الاثنين ثم يوم الثلاثاء ثم يوم الأربعاء ثم يوم الخميس لكن الأم التي كانت في الثانية والتسعين من العمر ماتت غرقا بعد أن غمرت المياه المؤسسة التي كانت تقيم فيها مع باقي رفاقها. عند هذا الجزء من القصة انهار رئيس البلدية وأجهش بالبكاء كطفل صغير.

كاترينا أخرجت بالفعل أسوأ وأجمل ما في السلوك الإنساني.

صوت درويش وكلماته ذكرتني بلاجئين ونازحين بلغة وبشرة مختلفة. صحيح أن الفقر ولون البشرة والاعتبارات السياسية وعدم الكفاءة كانت جميعها مسؤولة عن ضياع أرواح وممتلكات لم يكن ضياعها ضروريا إلا أن عزاء هؤلاء أنهم وجدوا إعلاما مواطنا وإنسانيا في معظمه سلط أضواء كاميراته على تقصير الحكومة واستدار عطف باقي الأمريكيين والعالم بل حمل الحكومة على المبالغة في رد فعلها المتأخر لكن نازحين ومشردين آخرين في الكثير من بقاع العالم يموتون ويغرقون في صمت.

أحدث سلالة الأعاصير- حتى كتابة هذه السطور - هو إعصار ستان الذي قتل جنوب المكسيك مائة وثلاثة وثلاثين شخصا لكنهم تحولوا بسرعة إلى رقم يسهل اختزاله ونسيانه لأن القدر الذي لم يخيرهم في مكان ازديادهم لم يخيرهم أيضا في زمان ومكان حتفهم بعيدا عن تراب الإمبراطورية وحكومتها المقصرة وكاميراتها المضيئة.

لكن الماضي القريب وتجربة وسائل الإعلام الأمريكية مع الأزمات ومع الأعاصير بالتحديد لا تبعث على «الأمل» في أن ينجح الضحايا وأهلهم في الإبقاء على القصة تحت الأضواء. نفس الإعلام الأمريكي قصير وذاكرته أقصر وسيكون من الصعب عليه مقاومة الإغراء الذي توفره تغطية المشاهير ومغامراتهم الجنسية وجرائمهم الرخيصة.

نيو أورليانز . . المدينة المختلفة

استيقظنا في الصباح الباكر على أزيز المولدات الكهربائية وحديث المراسلين بمختلف اللغات الحية والميتة في البقعة الصغيرة التي كانت تعج بالحياة وسط مدينة شبه ميتة. كان الرئيس بوش يستعد للقيام بأولى زياراته السبع للمنطقة للتكفير عن تباطئه وتلكئه بعد أن خذلته آلة العلاقات العامة الضخمة التي أوصلته إلى البيت الأبيض وأبقته فيه لولاية ثانية. آلة العلاقات العامة خذلته حتى وهي تحاول إنقاذه أثناء عودته من عطلته الطويلة في كراوفورد حينما سمح للمصورين في خطوة نادرة بالانتقال إلى المقصورة الرئاسية على متن الطائرة الرئاسية وهي تحلق على انخفاض فوق المناطق المنكوبة. المصورون التقطوا صورة للرئيس «المهتم» برعيته، وهو ينظر من على الخراب الكامل إلا أن الصورة التي أريد منها تلميع صورته جاءت بنتائج عكسية حينما أظهرته بعيدا ومتعاليا على بحر المعاناة من تحته.

انطلقنا في جولة بين الشوارع شبه الخالية من الحي الفرنسي على ضفاف مياه الفيضانات والمحلّات التجارية المنهوبة والمحروقة.

تأخذك الشفقة على هذه المدينة المختلفة عن باقي المدن الأمريكية حيث الاحتفال بالحياة والموت يجعلها رغم فقرها واحدة من أكثر المدن الأمريكية دفئا ولهوا.

نيو أورليانز ذات المنشأ الفرنسي والطفولة الإفريقية والكاريبية كانت كمعظم مدن الجنوب الخاسرة عسكريا في الحرب الأهلية الأمريكية إلا أن السود الذين كانوا رقيقا في مزارع البيض فرحوا بانتصار قوات الشمال، ورحلوا عن المزارع إلى كبريات المدن في ولايات الجنوب كميسيسيبي والأباما ولويزينا.

جنوب أمريكا خسر الحرب الأهلية - لحسن حظ السود والإنسانية - لكنه خسر أيضا التنمية الاقتصادية وتخلف عن القفزة الصناعية الهائلة التي طورت باقي الولايات.

هذه المعطيات التاريخية تفسر إلى حد ما تراكم الفقر والعنصرية ومظاهر الحياة عالم ثالثية التي عرتها رياح كاترينا وأخجلت أمريكا والأمريكيين لأجيال قادمة.

لكن نيو أورليانز على خلاف باقي مدن الجنوب الأمريكي كان لها تاريخ وشخصية تحس بهما بمجرد أن تطأ قدماك أحد أحيائها. هنا في حانات المدينة التي لا تغلق أبوابها صدح السود بمعاناتهم بموسيقى الجاز، ويصرون على مرافقة الموتى إلى مثواهم الأخير على ألحان البلوز محتفلين بالموت بطريقة لن تجدها في أي مدينة أخرى.

نيو أورليانز مدينة تعشق الحياة رغم فقرها ربما بسببه، ولا تتميز عن باقي المدن الأمريكية بمهرجاناتها الموسيقية الصاخبة ولكن أيضا بمطبخها الذي يجمع بين الفرنسي والإفريقي والكاريبي في حين تعيش باقي المدن الأمريكية على الهامبورغر والبيتزا.

في العقود الأخيرة كانت نيو أورليانز ضحية اللعبة السياسية في واشنطن حيث لم تعد محاربة الفقر موضة سياسية وتنافس الحزبان عمن يقلص حجم الحكومة، لأن الحكومة كما قال رونالد ريغان هي المشكلة وليست الحل. الحكومة الكبيرة كانت تعني للجمهوريين هي برامج مساعدة الفقراء. الليبراليون الذين كانوا ينادون بمختلف البرامج الحكومية لتقليص الهوة بين الطبقات تعرضوا لهجوم عنيف من آلة اليمين الإعلامية الضخمة حتى أصبحت صفة الليبرالي تعني الخائن في القاموس السياسي الأمريكي الحديث. بيل كلينتون الذي ركب الموجة بتبنيه أو سرقته بعض تلك الشعارات أعلن بفخر واعتزاز كبيرين في أحد خطب حالة الاتحاد أمام الكونغرس «أن عهد الحكومة الكبيرة قد انتهى»، مشيرا إلى توقيعه على قانون «إصلاح» نظام الرعاية الاجتماعية الذي كان يقدم مساعدات مالية مباشرة للفقراء.

المفارقة أن جورج بوش الرئيس المحافظ ضخم الحكومة إلى أكبر حجم تصله في تاريخ الولايات المتحدة بدعوى مكافحة الإرهاب، ونقل الميزانية من الفائض إلى عجز، حيث تمسك الصين حاليا بأكثر من ثمانمائة مليار دولار من الديون الأمريكية، وأعلن بعد كارثة كاترينا أن الحكومة هي المشكلة متعهدا بأن الحكومة ستكون هي الحل أيضا. الحكومة أخفقت إذن ولكنها ستقوم بأكبر عملية إعادة بناء في تاريخ أمريكا في تصريح صب عليه جام غضب المحافظين من أبناء جلدته الإيديولوجية.

في الحملة الانتخابية لعام ألفين حينما كان النقاش منصبا على كيفية إنفاق ترليونات الدولارات المتوقعة كفائض في الميزانية تعهد المرشح الجمهوري جورج بوش في إحدى مناظراته مع خصمه الديمقراطي ألبرت غور بأنه سيحافظ على الفائض إلا في حال حرب أو كارثة طبيعية.

جورج بوش الذي يزعم أنه ذهب للحرب بأمر مباشر من الله تعالى تحققت له كل تنبؤاته وأكثر. فعوض حرب جاءته «الأوامر» بخوض حربين وأكثر وجاءته من الكوارث البشرية والطبيعية ما لم يكن يتوقعه أحد.. ومع ذلك ما زال مصرا على خفض الضرائب لصالح أغنياء حزبه على حساب فقراء نيو أورليانز وغيرهم من فقراء وسود أمريكا.

في شارع البوربون

بدا شارع البوربون الشهير ذي العمارة الفرنسية المتميزة كشوارع إحدى المدن عالم ثالثية صبيحة الانقلاب.. عشرات الجنود الشبان بأسلحتهم الضخمة المشهرة في اتجاه السماء يجوبون الشارع راجلين أو على سياراتهم العسكرية المكشوفة، جاء معظمهم إلى المدينة متأخرين بعد تحفظ وزير الدفاع دونالد رامسفيلد على نشرهم في المناطق المنكوبة. تحفظ رامسفيلد لم يأت لأسباب دستورية لأن منظر الجنود بلباس الميدان داخل المدن الأمريكية كان مقتصرا على الأفلام السينمائية ولكن جاء بسبب إكراهات الحرب في العراق التي أرهقت المخزون البشري لوزارته.

لكن تواجدهم وعلى هدي الأنظمة العسكرية كانت الطريقة الوحيدة لحفظ النظام بعد أن انهارت مؤسسة الأمن المحلية. الجنود الذين يكرهون التحقيقات وأكدوا في غوانتانامو وأبوغريب أنهم لا يعرفون أيضا كيفية الاحتفاظ بالسجناء، أطلقوا في ذلك اليوم النار على خمسة من المشتبه فيهم قيل إنهم كانوا يحاولون اعتراض بعض العمال الفدراليين، فأردوهم قتلى. كانت تلك آخر حادثة «لحفظ النظام» تشهدها المدينة في فترة ما بعد كاترينا.

أثناء تجوالنا في الشارع التقينا ثلاثة من السكان المحليين رفضوا الرحيل عن مدينتهم رغم التحذيرات ورغم العروض التي قدمتها الحكومة الفدرالية حينما جاءت بكل ثقلها.

حينما اقتربنا منهم كانوا في جدال حاد بينهم لأن أحد عمال الإغاثة أعطى الرجل الأسود الوحيد بينهم كيسا إضافيا من الثلج، وحينما تقدم الأبيض بطلب مماثل رفض عامل الإغاثة الاستجابة لطلبه. كان جون الرجل الأبيض الذي يشتكي من العنصرية المضادة في منتصف العمر، يدخن بشراهة ويحرك يديه المليئتين بالوشم بعصبية واضحة. جون رفض بالطبع أن يكون تأخر الحكومة في الاستجابة لطالبي الإغاثة بسبب لون بشرتهم السوداء لأنه يشكو من

العكس تماما. سألته لماذا لم يغادر المدينة رغم إدراكه بأن البقاء فيها قد يعرض حياته للخطر. أجابني بسرعة تنم على أنه فكر في الجواب من قبل مؤكدا أنه ببساطة لا يملك أسرة أو مالا أو أي مكان آخر يتوجه إليه. وختم جوابه بسؤال لي «هل تريد أن أذهب لاجئا في وطنك؟». عدت لأسأله لما لم يتوجه إلى قصر المؤتمرات أو ملعب المدينة حيث تجمع النازحون. رد بابتسامه كشفت عن فم رحلت عنه معظم أسنانه رغم صغر سنه نسبيا قائلا بلهجة لا تخلو من تهكم واضح «دعني أذكرك : في الملعب قتل ثمانية وفي قصر المؤتمرات قتل سبعة .. أفضل أن أموت هنا بجانب أصدقائي ومكان عملي». الأرقام التي ذكرها تبين فيما بعد أنها لم تكن صحيحة، ولكن الاعتقاد كان سائدا ساعتها بأن أعمال عنف رهيبة تتم في أماكن لجوء النازحين. رفيقه الأسود الذي حظي بكيس إضافي من الثلج كان أكثر عمقا في تحليله حول تقصير الحكومة، وإن وافق رفيقه في استبعاد الجانب العنصري. عزا مايكل بشعره الأفرو الذي يذكر بموضة السبعينات أن الأمر طبقي وليس عنصريا مجادلا بأن الموسرين من السود من سكان نيو أورليانز خرجوا مبكرا على متن سياراتهم، ولم يبق على حد تعبيره سوى السود الفقراء الأميين الذين يمكن التضحية بهم. رفيقاه من البيض الفقراء الذين بقوا معه خلال وبعد الإعصار القاتل يؤكدن بوجودها صحة ما ذهب إليه من تنظير. جورج كان أكبر الثلاثة سنا أبلغني بأنه في الثانية والسبعين من عمره، وأنه عاش حياة مليئة بالمغامرة والسعادة والشقاء ولا يهمه إن رحل بكاترينا أو بغيرها. صب جورج جام غضبه على السياسيين ديمقراطيين وجمهوريين مشيرا إلى أنهم يعيشون في غرفهم المكيفة في واشنطن، ويتقاضون المرتبات المرتفعة غير عابئين بمصير الفقراء من طينته.

قبل أن نودع الرفاق الثلاثة هرع جورج إلى المطعم الذي يشتغل فيه الثلاثة، وأحضر لنا مجموعة من قنينات العصير. على أن نأخذها رغم شعورنا بالذنب من قبول هدايا من رجال معدمين لفظتهم الحياة والحكومة. ونحن نهم بالمغادرة شاكرين للرجال الثلاثة وقتهم وأريحيتهم أخذني جورج من ذراعي، وكأنه يريد أن يأتمنني على سر خطير. «اسمع .. لقد كان من المقرر أن أجري عملية جراحية على سرطان البروستات في نهاية الشهر – شتنبر – لكن الأطباء هربوا والمستشفى نفسه غرق تحت الماء.. ومع ذلك فأنا غير آبه أو مهتم». وأضاف مشيرا بأصبعه نحو السماء «سنذهب إلى هناك حينما يأتي دورنا.. بإعصار أو بسرطان.. ما هو الفرق؟»

دبلوماسية الكوارث

الحادي عشر من شتنبر حول جورج بوش إلى دون كيخوته القرن الحادي والعشرين، فيما حولته كاترينا إلى مذيع للنشرة الجوية يتابع صور الأقمار الاصطناعية لتحديد خطبه ومكان زياراته المرتقبة.

بعد توارد الأنباء عن الزلزال المدمر الذي حصد أكثر من ثلاثين ألف شخص في باكستان سارع الرئيس الأمريكي وعلى غير عادته لأخذ صور علنية مع دبلوماسي باكستاني في يوم عطلة للتعبير عن التضامن والتبرع بحوالي خمسين مليون دولار وثمان طائرات مروحية توقفت مؤقتا عن البحث جوا عن أسامة بن لادن ورفاقه في مغارات المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان.

رغم ضخامة الكارثة في شبه القارة الهندية كان من الصعب التنبؤ بسرعة تحرك الرئيس الأمريكي بالسرعة التي تحرك بها إلى كاترينا. المجاعة التي حصدت وما زالت تحصد عشرات الآلاف من سكان النيجر لم تستحق بعد خطوة أو كلمة من الرئيس المحافظ لأن مأساة النيجر بدأت في عهد ما قبل كاترينا وسط تجاهل من كاميرات التليفزيون الأمريكية.

رئاسة بوش التي تشكلت في أنقاض مبنى التجارة العالمي، وأعادت كاترينا تشكيلها في دمار المناطق المطلة على خليج المكسيك ما زالت وفية لعمليات التشكيل والتكوين على إيقاع الكوارث بشرية كانت أو طبيعية. الطبيعة كانت وما زالت «سخية» في توفير الفرص المختلفة للرئيس لإعادة تسويق صورته إلا أنها لم تساعده - حتى الآن على الأقل - في أرقام استطلاعات الرأي العام.

لكن الصورة العلنية في المكتب البيضاوي من الدبلوماسي الباكستاني المعترف بالجميل سرعان ما أخذت أبعادا أبعد بكثير من الخطوة الإنسانية تجاه صديق وحليف في الحرب على الإرهاب وقت الحاجة.

أذكر خلال كارثة تسونامي سارعت وسائل الإعلام الأمريكية لاستطلاع رأي العرب والمسلمين تجاه المساعدات التي قدمتها القوات الأمريكية ساعتها إلى الضحايا المسلمين في أندونيسيا. أذكر أنني قلت لزميلي بوب فرانكن من محطة «سي إن إن» الإخبارية إن منظر الجنود الأمريكيين وهم يناولون الضحايا الوجبات العسكرية الجاهزة والماء الصالح للشرب قد يساعد أمريكا في كارثة العلاقات العامة في العالم الإسلامي لأن تلك الصور سوف تحتل الشاشات ولو مؤقتا مكان صور الطائرات الأمريكية وهي تقصف المدنيين في العراق وأفغانستان، والطائرات الإسرائيلية الأمريكية الصنع وهي تقصف الفلسطينيين في غزة. إلا أن الكاميرات سرعان ما ستتحول إلى الشرق الأوسط وتغطي بين نشرة إخبارية وأخرى المضاعفات الإيجابية للمهمة الإنسانية للجيش الأمريكي في المناطق المنكوبة.

من الواضح أن زلزال باكستان هي فرصة دمار إضافية للبيت الأبيض ولقسم الدبلوماسية العامة في الخارجية الأمريكية لتوظيف الكارثة لإظهار الجانب الخير من أمريكا بأمل التخفيف ولو مؤقتا من موجة العداء القوية لأمريكا في باكستان رغم ولاء جنرالها برويز مشرف وبقية العالم الإسلامي. السرب الأول من الطائرات المروحية انتقل من أفغانستان المجاورة متخليا عن مهمتها في العثور على بن لادن والظواهري والملا عمر في الحرب الأبدية الأخرى للانضمام إلى حرب العلاقات العامة.

كاترينا نجحت فيما فشل فيه آل غور وجون كيري وجميع أعضاء القيادة الديمقراطية في الكونغرس بإحداث تصدع في الحزب الجمهوري بين البيت الأبيض الذي يريد إنفاق كل ما يتطلب لإعادة البناء والمحافظين التقليديين الذين يكرهون العجز في الميزانية. الرئيس الذي تحول مبكرا إلى بطة عرجاء قبل أن ينهي العام الأول من ولايته الثانية أصبح تحت رحمة الطبيعة وغضبها غير المتوقع.

بعد استقباله للدبلوماسي الباكستاني توجه إلى حديقة البيت الأبيض ليمتطي طائرة الهليكوبتر تحت عدسات الكاميرات متوجها إلى نيو أورليانز في زيارته الثامنة.

محطة فوكس الناطقة باسم أكثر الأجنحة تطرفا في الحكومة وخارجها بدأت تمني النفس في أن ينجح زلزال باكستان فيما فشلت فيه فيالق الجيش الأمريكي بالإعراب عن الأمل على لسان بعض ضيوفها أن يكون زعيم القاعدة ورفاقه قد قضوا تحت الأنقاض.

الولاية الثانية والفساد

بعد فترة وجيزة من ضمان الرئيس بوش فوزه بولاية ثانية بدأت الصحافة الأمريكية تتساءل بخبث واضح عن طبيعة الفضائح التي ستشهدها الولاية الثانية للرئيس احتراما للتقليد الذي أصبح متبعا منذ ريتشارد نيكسون ويقضي باقتران الولاية الثانية بفضيحة كبيرة.

ووترغيت عصفت برئاسة نيكسون ومكانته في التاريخ حينما حاول التجسس على خصومه الديمقراطيين والتستر على العملية وتسجيل صوته خلال المؤامرة برمتها.

رونالد ريغان دخل في صفقة شيطانية لإطلاق سراح الرهائن ودعم الجماعات اليمينية في نيكاراغوا وغيرها لوقف المد اليساري في أمريكا اللاتينية في غفلة وانتهاك للقوانين التي أصدرها الكونغرس. بيل كلينتون - اللهم إني صائم - تعرفون فضيحته الكبيرة مع المتدربة اليهودية في المكتب البيضاوي في الوقت الذي كان يستعد فيه لإنهاء صراع الشرق الأوسط مع الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات الذي كان ينتظر خارج المكتب. عوامل كثيرة كانت تعطي الانطباع في نونبر الماضي على أن هذا البيت الأبيض يتمتع بشبه مناعة من الفضائح التي عكرت الإرث التاريخي للرؤساء الذي نجحوا في تمديد بقائهم في البيت الأبيض ثماني سنوات. من بين تلك العوامل «التدين» العميق للرئيس وزبانيته الذين جاؤوا إلى واشنطن كفاتحين أخلاقيين يشنون الحروب بتعاليم مباشرة من السماء. العامل الثاني وربما الأهم هو طريقة عمل فريق البيت الأبيض التي تعتمد علي عنصرين رئيسيين : السرية والوفاء.

السرية سمحت باستبعاد عيون الصحافة عن الغسيل الوسخ لبيت آل بوش في حين أن جميع مساعديه كانوا دائما مطمئنين على مصيرهم إن افتضح أمرهم لأن الرئيس لا يستغني بسهولة عن مريديه ومساعديه.

العامل الثالث وربما الأكثر أهمية من العاملين السابقين هو أن جورج بوش كان يتمتع بتأمين سياسي كان يفتقر إليه كل من ريتشارد نيكسون أو رونالد ريغان أو بيل كلنينتون أي أن بوش يتمتع بأغلبية من حزبه تسيطر على مجلس الكونغرس بل حتى في المحكمة العليا التي حكمت لصالحه عام ألفين. يساور المراقبين القليل من الشك في أن امتلاك ريغان أو نيكسون أو كلينتون لنفس التأمين كان سيوفر عليهم جميعا المتاعب التي أصبحت مقترنة برئاستهم ومكانتهم في التاريخ.

بعض المراقبين بدأوا يتساءلون عن الحكمة من وراء السعي لولاية ثانية ما دامت السنوات الأربع الإضافية أصبحت مقترنة بشكل حتمي بالفضائح والجرائم.

لكن جورج بوش ورغم كل الضمانات - وربما بسببها - دخل نادي الفضائح مبكرا، وكانت رياح كاترينا الهوجاء أول من عرى أوراق التوت عن الإمبراطور المزيف.

كاترينا نبهت الرأي العام إلى أن جورج بوش نصب في حوالي تسعة عشر ألف منصب سياسي - وهي المناصب التي تتغير مع كل إدارة جديدة - على رأس مختلف الوكالات الحكومية أشخاصا معظمهم من منعدمي الكفاءة أو لا علاقة لهم بالميادين التي يشرفون عليها وكانت العلاقات والزبونية طريقهم الوحيد للتسلق نحو الأعلى.

لكن كاترينا صدعت الوحدة داخل بوليصة التأمين السياسية لجورج بوش أيضا وإن لم تصدعها نهائيا. الأسبوع الماضي صوت تسعون عضوا في مجلس الشيوخ من أصل مائة عضو لصالح مشروع قانون يحرم التعذيب بكل أشكاله في المعتقلات التي يشرف عليها الأمريكيون سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها. جورج بوش الذي لم يستعمل حق الفيتو ضد أي مشروع قانون خلال السنوات الخمس الماضية يهدد حاليا برفض أكثر القوانين أخلاقية يأتي من مجلس يسيطر عليه حزبه المحافظ.

في مجلس الشيوخ أيضا يتعرض زعيم حزبه بيل فريست لتحقيق فدرالي في قضية اكتساب غير مشروع في صفقة للأسهم في حين وجهت التهم رسميا لزعيم الحزب نفسه في مجلس النواب توم ديلي لانتهاكه المحتمل لقوانين ولاية تكساس بتحويله أموالا من شركات إلى مرشحين جمهوريين في انتهاك واضح لقوانين الولاية.

داخل البيت الأبيض يركز محقق خاص على اثنين من أكثر الموظفين نفوذا هم «عقل الرئيس» كارل روف مهندس حملاته الانتخابية وسكوت ليبي رئيس هيئة موظفي نائب الرئيس لضلوعهما المحتمل في الكشف عن سرية عملية في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انتقاما من زوجها الذي شكك في أدلة الحكومة بشأن أسلحة العراق. الكشف عن سرية عميل في الوكالة يعد جناية في القانون الفدرالي الأمريكي.

الحرب في العراق وكاترينا والتحقيقات المتزايدة جعلت رئاسة جورج بوش تدخل موسم الفضائح مبكرا في ولايتها الثانية إلا أن اختياره لمرشحة لعضوية المحكمة العليا كانت القشة التي فجرت التحالف غير المقدس بين البيت الأبيض واليمين الديني المتطرف.

خلاف عائلي على مستوى عال

تركيز الإعلام الأمريكي هذه الأيام إلى جانب الأعاصير والكوارث الطبيعية، يطال أيضا مظاهر الانهيار في رئاسة جورج بوش حيث وصلت شعبيته إلى سبعة وثلاثين في المائة حسب أحدث استطلاع للرأي، وهي أدنى نسبة له منذ وصوله إلى البيت الأبيض منذ خمس سنوات. كاترينا كانت بكل تأكيد الفاصل بين فاعلية الرئيس وفترة تحوله إلى بطة عرجاء بعد أن اهتزت صورته حتى بين أقرب أصفيائه ومريديه.

الرئيس بوش لم يساعد نفسه في فترة ما بعد كاترينا حينما وقع اختياره على محامية مغمورة من الدائرة المحيطة به كمرشحة لعضوية المحكمة العليا مدى الحياة.

اختيار بوش للمحامية هارييت مايرز أشعل حربا لا هوادة فيها بين أوساط المحافظين المعتدلين منهم والمتطرفين ضد البيت الأبيض وساكنه رغم أنهم لعبوا دورا محوريا في وصوله وبقائه في البيت الأبيض.

التصويت على عضوية مرشح للمحكمة العليا بالنسبة لأعضاء مجلس الشيوخ المائة يشكل ثاني أخطر تصويت يدلون به بعد التصويت على قرار الحرب لأن الأعضاء التسعة بجلابيبهم السوداء يلعبون دورا على قدر كبير من الخطورة في الحياة اليومية للأمريكيين بإفتائهم النهائي فيما هو مسموح أو محظور فيما يقدم عليه المواطنون.

المحافظون الذين يرون ترديا أخلاقيا في المجتمع يتطلعون إلى المحكمة العليا بهدف «التفسير الحرفي» للدستور على أمل «تحريم» مواطن الانحلال الخلقي في المجتمع من إجهاض وشذوذ وحق في الانتحار وغير ذلك من القضايا الشائكة والمصيرية التي ستعرض على المحكمة في موسمها القادم. الكثير من المحافظين كانوا ناقمين على بوش لأسباب مختلفة حسب موقعهم في الخط الإيديولوجي للحزب لكنهم كانوا يغفرون له زلاته بأمل

تكفيره عن تلك الزلات بتقديمه مرشحين للحكومة على المقاسات الفكرية والقانونية والإيديولوجية التي كانوا يتطلعون إليها.

الفرصة الذهبية الأولى جاءت في عز الإعصار حينما مات رئيس المحكمة وليام رانكويست، فرشح بوش جون روبرتس لخلافته. روبرتس العبقري القانوني والكاثوليكي المحافظ لم يكن محافظا بما فيه الكفاية لكن عمله في حكومات ريغان وبوش الأول والثاني شفع له سياسيا ونال تأييد جميع الجمهوريين في المجلس وحتى بعض الديمقراطيين.

الفرصة الثانية كانت أكثر خطورة وحساسية لأن القاضية المستقيلة جين أوكانرز كانت معتدلة أو عادة ما تدلي بالصوت الحاسم بين جناحي المحكمة العليا. وكان المحافظون يتطلعون إلى مرشح أو مرشحة من طينة جون أشكروفت المسيحي المتطرف الذي غطى تمثالا في وزارة العدل حينما دخلها وزيرا في الولاية الأولى لحكومة بوش لأنه كان مخلا بالحياء العام.

الديمقراطيون الذين ينظرون دون حول أو قوة - كما هو الشأن في باقي القضايا التي تعصف بالبيت الأبيض - وقفوا على الهامش ليتفرجوا على أسوإ معركة عائلية بين المحافظين الذين أحبطوا في بطلهم جورج بوش.

مايرز جاءت إلى البيت الأبيض كسكرتيرة قانونية في رحلة قادتها مع بوش من ولاية تكساس حينما كان حاكما للولاية، وعينها مديرة لوكالة اليانصيب وبقيت إلى جانبه في البيت الأبيض خمس سنوات تشيد بحكمته وعبقريته. ما يبرز على خلاف معظم قضاة المحكمة العليا لم يسبق لها أن عملت قاضية من قبل، وبالتالي تفتقر إلى تراث قانوني يسمح للمحافظين بالاطلاع على آرائها بشأن القضايا العزيزة إلى قلوبهم. جواب الرئيس بوش «صدقوني.. إنني نظرت إلى قلبها وأعرف أنها لن تغير مواقفها» بالنسبة للسناتور النافذ ترنت لوت الزعيم السابق للجمهوريين في مجلس الشيوخ فإن كلمة «صدقوني» غير كافية لوضع سيدة بدون تجربة وبدون آراء محافظة واضحة لوضعها مدى الحياة فوق منصة المحكمة العليا.

التعيين عزز أيضا اتهامات الزبونية وعدم الكفاءة التي تعرت بعد أن انتبهت وسائل الإعلام الأمريكية إلى تجارب وتكوين كبار المسؤولين الحكوميين.

فضلا عن الزبونية والمحسوبية اعتبر بعض المراقبين إقدام الرئيس بوش على هذه الخطوة المثيرة للجدل دليلا إضافيا على الضعف السياسي الذي بدأ ينخر حكومته مضحيا بقاعدته نتيجة عدم قدرته على مواجهة خصومه الديمقراطيين في مجلس الشيوخ إن أتى لهم بمتطرف يميني.

غضب المحافظين الذي طفا إلى السطح نابع من الخوف من أن بوش يضيع عليهم فرصة قد لا تعوض لسنين طويلة وإذا بقيت شعبية الرئيس على مستوياتها المتواضعة، فإن الجمهوريين قد يفقدون أغلبيتهم في مجلس الشيوخ في انتخابات نصف المدة في نونبر القادم.

كاترينا والعراق

بداية الانهيار شبه الشامل لسياسة الرئيس بوش في نظر الرأي العام الأمريكي بدأت مع عطلته الصيفية الطويلة بداية شهر غشت قبل أن تأتي كاترينا لتقطعها قبل انتهائها الرسمي بيومين في مزرعة كراوفورد. من سوء حظ البيت الأبيض أن فصل الصيف لم يوفر للصحفيين الأمريكيين الكثير مما يشغلهم عن الأخبار السيئة القادمة من العراق سوى سيدة تدعى سيندي شيهان الأم الثكلى التي فقدت ولدها في الحرب وقررت الذهاب لتعسكر خارج المزرعة طيلة عطلة الرئيس مطالبة بلقائه. فيلق رجال ونساء الصحافة الذين يغطون البيت الأبيض طيلة أيام السنة كانوا أيضا يقاومون الملل في قيظ تكساس، فوجدوا في السيدة شيهان قصة إخبارية يومية، ووجدت فيهم نافذة مفتوحة على الرئيس بوش والرأي العام الأمريكي والعالم طيلة العطلة الرئاسية. المؤانسة المشتركة كانت ضربة موفقة للحركات المناهضة للحرب، وتعثرا مخيفا لآلة الدعاية الرهيبة للبيت الأبيض. الرئيس رفض مقابلة السيدة شيهان بدعوى أنه سبق له الحديث إليها العام الماضي، ولكنها حققت أكثر بكثير ما يمكن لأي لقاء تحقيقه بنجاحها بين عطلة رئاسية وضحاها في قلب ثلثي الرأي العام الأمريكي من مؤيد إلى معارض للحرب.

وجاءت كاترينا..

اهتمام وسائل الإعلام انتقل خلال خمسة أيام قبل مجيء العاصفة القاتلة للتركيز على مكانها وقوة تحركها وهدفها المحتمل، وتنفس البيت الأبيض الصعداء لأن نزيف العراق توقف ولو مؤقتا في وسائل الإعلام، وأصبح المشاهدون يتلقون دروسا يومية في الأرصاد الجوية بدل السيارات المفخخة وسقوط الضحايا المدنيين العراقيين الذين لا يكترث أحد بإحصائهم. لكن فرحة البيت الأبيض لم تدم طويلا وكانت بالفعل فترة هدوء يسبق أم الأعاصير.

كاترينا كانت مكلفة للبيت الأبيض بالنسبة للسياسة الأمريكية إزاء العراق على أكثر من مستوى.

الإخفاق في إنقاذ مواطني الولايات الثلاث المتضررة لويزيانا وميسيسيبي والأباما ولد انطباعا لدى الكثير من المواطنين بأن الحرب في العراق كانت السبب المباشر في عجز الحكومة لأن جهود الحرب امتصت الموارد البشرية والمالية الضرورية لإنقاذ مواطنين أمريكيين منكوبين. وسمعت في الولايات الثلاث تقريبا شكاوى من مواطنين يتساءلون بطريقة متشابهة تقريبا عن الحكمة «من تواجدنا في العراق» أو «لماذا نسقط القنابل على شعب لا نعرفه في الجهة الأخرى من العالم، ولا نستطيع إسقاط مواد الإغاثة على مناطق في جنوب بلادنا؟» في حديثي لبعض الجنود وبعضهم عائد للتو من العراق تحدث بعضهم - مع الإصرار على عدم الإشارة إلى أسمائهم أو رتبهم - عن الفرق الكبير بين المهتمين، وأعرب معظمهم عن سعادتهم لمساعدة أبناء شعبهم بدل شن حرب بدون أهداف واضحة في بلاد بعيدة.

انقشاع العاصفة على فداحة الكارثة ماليا إذا وصلت تقديرات إعادة الإعمار خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى على وصول كاترينا إلى المبالغ التي كلفتها الحرب ضد العراق حتى ذلك الوقت. الميزانية الفدرالية المفلسة التي تقترض سنويا كل ميزانية الدفاع - حوالي أربعمائة وخمسين مليار دولار - من الصين واليابان وكوريا الجنوبية ستكون مضطرة لاقتراض المزيد. مرة أخرى العديد من سكان المنطقة وممثليهم المحليين والفدراليين بدأوا يتساءلون عن الجدوى من بناء المدارس وتعبيد الشوارع في بغداد إن تكن الحكومة الفدرالية قادرة على فعل الشيء نفسه في مدنهم. رئيس بلدية نيو أورليانز طلب في إحدى مؤتمراته الصحفية بأن تعطي واشنطن لسكان مدينته ما تعطيه للعراقيين لا أقل ولا أكثر. ولكن عمدة المدينة ربما لا يعلم أن الأغلبية الساحقة من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين التي تذهب إلى العراق تصرف على المجهود الحربي، وأن العراقيين رأوا القليل من الشوارع المعبدة والمدارس المشيدة بأموال أمريكية.

الإرهاق العسكري بعد نشر أكثر من سبعين ألف جندي في خليج المكسيك، والتكلفة المالية الآنية والمتوقعة عززت الأغلبية المتزايدة في صفوف الحركات المناهضة للحرب

حتى بين بعض الجمهوريين المتشددين الذين دأبوا على تأييد زعيمهم ظالما أو مظلوما.

صحيح إن كاترينا غيّبت موضوع العراق ولو مؤقتا من العناوين الرئيسة إلا أن عودته بعد انحسار رياحها جعلته أكثر سوءا على البيت الأبيض حتى بالمقارنة مع الأيام الأولى لعطلة الرئيس في المزرعة القائظة في تكساس.

بوش يحاول استعادة المبادرة

بين الزيارات المتكررة لنيو أورليانز التي بلغت ثمانية حسب آخر إحصاء لم تنجح جميعها في تحريك الرأي العام تجاه قدرة الرئيس بوش على توجيه البلاد أو تجاه ثقة الرأي العام في خططه، حاول القائمون على التأثير في الرأي العام استعادة بعض المبادرة من كاترينا ومن الأخبار السيئة في العراق خاصة أن بغداد مقبلة على استحقاقات انتخابية مصيرية. الحملة المنظمة بدأت باستقبال الرئيس العراقي جلال الطالباني الذي بالغ في الإشادة بمضيفيه الأمريكيين الذي حرروا على حد تعبيره خمسين مليونا من المسلمين. استنجاد البيت الأبيض بالرئيس العراقي لإنقاذه من مخلفات كاترينا كان بالفعل كالمستجير من النار بالرمضاء. الرئيس الكردي حاول أن يساعد مضيفيه بإدلائه بتصريح للواشنطن بوست بأن القوات العراقية ستكون قادرة على الحلول محل خمسين ألف جندي أمريكي بحلول نهاية العام. التصريحات لم ترق للبيت الأبيض الذي يكره الحديث عن أي انسحاب أو تحديد موعد للانسحاب مهما ساءت الأوضاع. الطالباني اضطر للتراجع علنا عن تصريحاته العلنية السابقة. التغطية الإعلامية ركزت على التناقض الواضح، وساهمت الزيارة في إثارة الجدل حول الانسحاب أكثر من تركيزها على تعابير العرفان بالجميل من الرئيس الزائر.

بعد إخفاق ذلك الجزء من حملة العلاقات العامة لجأ سحرة البيت الأبيض إلى أسلوب قديم في محاولة لتغيير الموضوع بتصعيد الحملة على دمشق بإعطاء الضوء الأخضر للسفير الأمريكي في العراق بالإعلان أن «صبرنا بدأ بالنفاذ»، إحدى المجلات الأمريكية تحدثت عن مناقشة «مجلس الحرب» في البيت الأبيض إمكانية قصف مواقع سورية للمتمردين لتلقين الحكومة السورية درسا وربما التنفيس ولو مؤقتا عن الإخفاقات المتكررة في العراق لولا معارضة السيدة رايس التي أصبحت فجأة حمامة سمراء وسط صقور شقر.

بعد ذلك استدعى البيت الأبيض كبار جنرالاته من الميدان للحديث عن «التقدم» الذي تحرزه قوات التحالف في قتل الإرهابيين، وتدريب العراقيين لكن عشرات الفرق العسكرية العراقية المسلحة التي تحدث عنها الجنرالات في حديقة البيت الأبيض أصبحت بقدرة قادر فرقة واحدة حينما أدلى العسكريون بشهاداتهم أمام مشرعين من الحزبين كان الشك السمة الرئيسة لأسئلتهم المحرجة.

وأخيرا لجأ البيت الأبيض إلى حيلة الجدل في محاولة لإعادة إقناع الرأي العام المتشكك في الحرب، وفي قدرة الحكومة على إدارتها. الرئيس ونائبه ووزيرة الخارجية تقاسموا المهمة الخطيرة بإلقاء «خطب هامة» حول السياسية الخارجية والإرهاب والحرب في العراق.

الرئيس بوش احتفظ لنفسه بأكثر تلك الخطب خطورة وحساسية لإقناع الشعب الأمريكي بأن «الحرب في العراق هي جزء من الحرب على القاعدة التي تسعى لإنشاء إمبراطورية إسلامية متطرفة تنتشر من إسبانيا إلى أندونيسيا» حسب تعبيره.

الرئيس بوش حاول تصوير الحرب على أنها مرادف للحرب على الفاشية والنازية التي لاقت إجماع الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية لأن «إيديولوجية التطرف الإسلامي تشبه الإيديولوجية الشيوعية تحمل في طياتها تناقضات ستؤدي إلى نهايتها» على حد تعبيره. بل إن الرئيس الذي يتحاشى في المدة الأخيرة الإشارة إلى زعيم القاعدة أسامة بن لادن وجد من الضروري الحديث بالاسم عن المنشق السعودي زيادة في الدراما والإثارة.

لكن تلك المبالغة كسابقاتها من حيل العلاقات العامة لم تساعد البيت الأبيض حتى في استطلاعات الرأي العام لأن معظم الافتتاحيات هاجمت الخطاب على أنه إعادة مملة للخطاب نفسه دون إضافة أو خطة مستقبلية.

الشيء «الجديد» الوحيد في الخطاب هو إشارة الرئيس بوش إلى أن حكومته نجحت في وقت عشر عمليات للقاعدة ثلاث منها فوق التراب الأمريكي. أسئلة الصحفيين ركزت بشكل كامل على تفاصيل تلك العمليات التي سمع الناس عنها لأول مرة من فم الرئيس لكن البيت الأبيض كان شحيحا في التفاصيل وتحول الخطاب فجأة إلى مشكلة مصداقية أكثر من مساعدته على تحويل جزء من الرأي العام مهما كان متواضعا.

أحد كتبة خطب الرئيس قال بعد الخطاب إنه لو كان يعلم أن الصحافة ستركز على تلك النقطة لكان قد حذفها من الخطاب.

بين الممنوع والمسموح

استيقظنا في اليوم الثاني داخل السيارة مع انقشاع الظلام، وبدأنا نتعود تدريجيا على روائحنا الكريهة.. لم يكن أحد يهتم في جميع الأحوال. تعودنا أيضا على الوقوف في طوابير مهمشي وملفوظي المدينة للحصول على وجبة ساخنة أو ماء بارد من المتطوعين. انتقلنا من المقعد الأمامي لتسجيل الحدث التاريخي إلى ضحاياه. الواقع أن شعورا غريبا بالتضامن كان سائدا بين الإعلاميين ورجال الشرطة والجيش إذ كان الجميع يواجه المحنة نفسها في نفس الظروف تقريبا وإن تعددت وتباينت المهام والواجبات .. حتى هذه اختلطت أحيانا. فريق هيئة الإذاعة البريطانية انتقل في زورق عبر شوارع المدينة الغارقة، وعثر في أحد البيوت على خمسة أطفال صغار يحيطون بأمهم التي قضت نحبها غرقا، وتحولت فجأة مهمته الصحفية إلى عملية إغاثة.. في حين التقطت مؤخرا كاميرات «الأسوشييدت برس» لقطة لرجال الشرطة المحللين يضربون بعنف مواطنا في الرابعة والستين.. الصور حولت الصحفيين إلى حماة للقانون ورجال حماية القانون إلى متهمين.

كاترينا أحدثت خللا في عشق السلطات الأمريكية للسيطرة والتأكد من الهويات في المناطق المحظورة. لم يكن أحد يسألنا من نحن وإلى أين نتجه حتى حينما غامرنا بالسيارة داخل المناطق العائمة، أو حينما دخلنا إلى المتاجر التي نهبت أو نهب بعضها. لكن الأمور ستتغير قليلا بعد الشروع في عملية الدخول إلى البيوت الغارقة وإخراج جثث ضحاياها. الإشاعات بدأت تنتشر بسرعة بين الصحفيين حول المناظر المأساوية داخل البيوت كالخبر الذي شاع بشأن سيدة ميتة بدأ كلابها في أكل جثتها. السلطات العسكرية بدأت في منع الكاميرات من التقاط صور الجثث التي يتم إخراجها من البيوت في خطوة موروثة على ما يبدو عن حربي أفغانستان والعراق.

الأمر العسكري في المدينة التي خاضعة بالفعل لحكم عسكري أوضح «أن القيادة - الجنرال راسل هونوري - لا تعتقد أنه من المناسب أن يسمح لوسائل الإعلام بمشاهدة الجثث».

شبكة «سي إن إن» رفعت دعوى قضائية ونجحت في استصدار قرار سريع يجمد العمل بالأمر العسكري إلى أن تنظر المحكمة في الدعوى. الحكومة التي كانت تعاني على ما يبدو مما يكفي من المشاكل تراجعت في آخر لحظة عن القرار المثير للجدل، بل حاولت الادعاء بأنها لم تصدره مطلقا. أحد مساعدي الجنرال قال : إن وسائل الإعلام أساءت فهم الأمر العسكري الذي كان يتحدث عن مرافقة الصحفيين للجيش على متن الشاحنات أو القوارب أو الطائرات ولم تكن النية أبدا في منع الصحفيين من القيام بعملهم إذا تواجدوا في المكان من تلقاء أنفسهم.

شبكة «سي إن إن» عرضت في وقت لاحق شريطا التقط قبل عملية «التوضيح» يظهر فيه شابان مسلحان من الحرس القومي يمنعان مصورا للقناة جاء من «تلقاء نفسه» - من التقاط صور بعض الذين لقوا حتفهم.

الحديث بدأ يتزايد أيضا حول الخطر الذي تشكله المياه الراكدة على صحة جميع من بقوا في المدينة بعد تسرب بعض الغازات والمواد الكيماوية السامة إلى الماء أو تسرب الماء إليها. عمدة المدينة أصدر واحدا من أوامره الكثيرة التي تراجع عنها بسرعة بضرورة ترحيل جميع من بقي في المدينة ولو بالقوة أو بمنع المنظمات غير الحكومية من تقديم أي مساعدات غذائية لهم لحملهم على الرحيل. استحالة تنفيذ ذلك الأمر قانونيا وعمليا حمل العمدة على التراجع ولكن إلى حين لأن ريتا كانت في طريقها، وسيجد العمدة نفسه بعد أيام قليلة ينفض الغبار أو بالأحرى ينشف قرار الترحيل الإجباري مرة أخرى.

عجز رئيس بلدية المدينة على اتخاذ قرار بعينه كان جزءا من إخفاق المسؤولين المحللين رغم توفرهم على «خطة» للإجلاء تم إعدادها والتدرب عليها منذ سنين.

الرئيس بوش ادعى خلال عز الأزمة أن أحدا لم يكن يتوقع أن تنهار الجدران المحيطة بالمدينة لكن وثائق الحكومة الفدرالية نفسها، خاصة وكالة الطوارئ أعدت دراسة أوائل التسعينات حول أسوأ المخاطر التي تتهدد المدن الأمريكية فحددت ثلاثا منها. عمل إرهابي في نيويورك أو زلزال مدمر في سان فرانسيسكو أو غرق مدينة نيو أورليانز.

من الأكيد أن العديد من سكان سان فرانسيسكو يتمنون أن لا تأتي الكارثة والجمهوريون يسيطرون على مقاليد الأمور في واشنطن خاصة بعد استغلالهم تحقق كارثة نيويورك لشن حربين وذهبوا لقضاء عطلة طويلة حينما غرقت نيو أورليانز.

في الأحياء السفلى بين الفقر والعنصرية

حينما كان يسأم الصحفيون من مناظر الجثث المنتفخة الطافية فوق الماء أو الملقاة لعدة أيام على قارعة الطريق، كانوا يتوجهون إلى الحانة الوحيدة المفتوحة في المدينة، والتي تحولت بدورها إلى مادة إعلامية لجميع صحفيي العالم المتواجدين في المدينة. الحانة التي كانت تضيء وجوه زبنائها بالشموع وتستخدم الثلج الذي يقدمه عمال الإغاثة تفاخر بلوحة مكتوبة بخط يدوي رديء أنها لم تغلق أبوابها لستة عشر عاما متتالية. ديدرا التي تخدم الزبائن تبدو جميلة عن بعد بشعرها الأسود الفاحم الذي يغطي معظم وجهها الصغير إلا أن الاقتراب منها ولو على ضوء الشموع يفضح ندوبا وآثار حياة صعبة. كان من السهل التفريق بين الصحفيين الزائرين والرواد الدائمين حتى في غياب المعدات الصحفية. هنا بقي من لا يملك أسرة أو مالا أو حتى رغبة في الحياة الكريمة. وجوه أرهقها إدمان الكحول واليأس وأجسام مغطاة بالوشم بكل الألوان والأشكال.

سكرول شاب لا يبدو أنه مارس عملا شريفا في حياته يقفز من كرسيه كلما دخلت كوكبة من العسكر أو الشرطة للاطمئنان على المكان المثير للانتباه. شعره الأصفر الذي يتدلى على عنقه يبدو أن عهده بالغسيل يعود إلى فترة أطول بكثير من قدوم كاترينا إلا أنه كان يحتذي زوجا جديدا من الأحذية الرياضية الرفيعة. ضحك كثيرا حينما علقت على الحذاء، وبدأ يقسم أنه اشتراه بماله مؤكدا أنه يملك وصلا على ذلك.. قلت له ضاحكا : سمعت أن بعض اللصوص الذين اقتحموا المحلات التجارية أخذوا وقتهم لاستصدار وصولات من الآلات الإلكترونية للمتاجر المنهوبة. بادلني الابتسامة ولم يعلق على الأمر كثيرا. سألت سكرول لماذا لم تغادر المدينة حتى بعد أن جاءت القوات الفدرالية وعرضت على كل من له رغبة في الرحيل إمكانية الانتقال إلى مكان أكثر أمنا. أجاب سكرول بأنه كان ينوى بالفعل مغادرة بيته الصغير الذي يقع في الحي الفقير إلا أنه يملك كلبين أصر على اصطحابهما، ورفض العسكر

رقته الزائدة على الحيوانات. أضاف سكرول أن الجندي الذي وقف على باب بيته عارضا هدية الإجلاء صوب مسدسه إلى الكلبين مقترحا التخلص منهما في الحال، إلا أن سكرول رفض العرض الحاسم والسخي مؤكدا أنه كان مستعدا لمواجهة الموت على أن يتخلى عن صديقيه الوحيدين.

بجانب سكرول جلس مواطن محلي آخر منهمك في تدريب كلبه على الجلوس أشار إلى المصور بأنه ربما «حصل» على كلبه حديثا.

ودعت سكرول عارضا عليه بعض الماء والوجبات العسكرية الجاهزة التي كانت بحوزتنا وتركته بصحبة مراسلي تلفزيون المكسيك لسماع الرواية نفسها أو ربما رواية مختلفة تماما.

في الشارع المقابل للحانة كانت مجموعة من السود في حالة هيجان واضحة تهاجم رواد الحانة الذين كانوا كلهم من البيض. حتى بين هؤلاء الفقراء الذين كانوا يواجهون معا موتا محققا في ليلة اهتزت فيهما مدينتهم من الجذور ما زالت الكراهية العنصرية حية ترزق بين أشخاص يرزقون بالكاد.

الحقد العنصري بين هؤلاء المعدمين كان إحدى مصادر الصدمة لي في نيو أورليانز لأنها كانت واضحة وبذيئة ولم تكن بحاجة على ما يبدو إلى كاترينا أو ريتا لكي تطل برأسها القبيح في الشوارع المظلمة للمدينة المنكوبة. وإن كانت كاترينا قد نجحت في فضحها على المستوى القومي بشكل غير مسبوق لدرجة تراجعت معها شعبية الرئيس بوش بين الأفارقة الأمريكيين إلى اثنين في المائة فقط وهي أدنى نسبة لأي مسؤول سياسي أمريكي منذ بداية عصر استطلاعات الرأي.

لويس فارخان زعيم أمة الإسلام الأمريكية لم يتردد في اتهام السلطات الفدرالية في إغراق المدينة عمدا لإعادة تركيبتها الديموغرافية حيث كان من ثلثي سكان المدينة من الأفارقة السود.

الزعيم الأسود الذي ما زال يملك جاذبية كبيرة بين السود الأمريكيين رغم اتهاماته المؤامراتية الكثيرة دلل على مزاعمه بأن الجدران الواقية للأحياء الأكثر فقرا انهارت قبل غيرها، بل يبدو أنها تحمل آثار قصف بين حيطانها.

الحكومة الفدرالية أنكرت الاتهامات بشدة وإن أعرب وزير التعليم الفدرالي وهو من الأقلية القليلة من السود الجمهوريين - أعرب عن الاعتقاد بأن نيو أورليانز لن تصبح أبدا كما كانت قبل كاترينا بما في ذلك تشكيلتها البشرية.

وليام بينيت وزير التعليم في حكومة جورج بوش الأول- أبيض - ذهب أبعد من ذلك حينما اقترح في برنامجه الإذاعي أن إحدى السبل لوقف الجريمة في أمريكا هي إجهاض جميع الأطفال السود. بينيت الذي بنى سمعة في وسائل الإعلام بأنه «ضمير» الحزب الصافي، وألف كتابا للأطفال حول حسن السلوك والأخلاق لم يعتذر عن تصريحاته العنصرية البغيضة حتى وإن أقر بأن تنفيذ سيناريو من ذلك القبيل الهتليري أمر بغيض أخلاقيا ودينيا.

بين الماء والنار

مع نهاية عمل كل يوم كنا نستغل ما بقي من ضوء النهار الطبيعي للقيام بجولات بين الأحياء المقفرة إلى أن تُوقِفَنَا المياه أحيانا دون سابق إنذار قبل أن يطبق الظلام على المدينة المنكوبة. كان من الصعب التصديق في معظم الأحيان أن ما نراه ونصوره فوق تراب الولايات المتحدة الدولة التي تفاخر بمناسبة وبغيرها أنها الأغنى والأقوى في تاريخ البشرية. حلول الظلام كان يعني حلول قانون الغاب حتى أبواق البيت الأبيض، وفي مقدمتها محطة فوكس كانت تتحدث عن «انتشار النهب والسرقة وعمليات الاغتصاب على أيدي العصابات التي تتحرك في الشوارع متسترة تحت جنح الظلام الحالك».

كانت مدينة بدون كهرباء أو ماء أو بلدية وفي معظم الأحيان بدون وازع أخلاقي.

في أحد أكبر مستشفيات المدينة احتار الطاقم الطبي حول ما يمكن عمله مع مجموعة كبيرة من المرضى بعد أن لم يأت أحد لإجلائهم. غياب الماء والكهرباء وارتفاع درجات الحرارة والرطوبة وخوف الطاقم الطبي على حياة أفراده دفع به إلى قتل بعض المرضى «رحمة» بهم من عذاب أسوإ وأطول.

في إحدى ساحات المدينة اليابسة استرعى انتباهنا رجل عجوز يتوسط الساحة ويقرأ كتابا. كان المنظر سرياليا بدرجة لا تتصور. وسط كل هذا الدمار والخراب والوحشة جلس هذا الرجل وحيدا غير عابئ بالعالم الذي انفض من حوله وراح يقرأ كتابا. المنظر زاد من فضولنا فقررنا إيقاف السيارة للحديث إليه. كان رجلا تخطى السبعين من عمره أبلغنا أنه كان يعمل مع أكبر صحف المدينة قبل أن تغلق أبوابها ليلة الإعصار. تساءلت عما إذا كانت قصة أحق بالكتابة من الرواية التي بين يديه. لم أساله بالضبط ماذا كان يعمل بالتحديد مع الصحيفة لأنه كان واضحا من حالته الخارجية أنه لم يذهب بعيدا في سلم تأجير الصحيفة المحلية.

كان يجمع كل أغراضه في كيسين بلاستيكيين كأي متسول قد تصادفه في إحدى مدن العالم الفقيرة تخلى عنه عالمه ولم يعد يعط عالمه أي اكتراث.

كان منظره والمشهد من حوله يلخص ببلاغة مرعبة حالته وحالة مدينته بطريقة جعلت طرح أسئلة عليه من باب السخف والعبث وضياع الوقت رغم أننا جميعا كنا نملك الكثير من الوقت. المثير أيضا أن هذا الرجل الذي قبل شاكرا بعض مساعدتنا كان محاطا بالكثير من المتاجر المفتوحة قسرا والكثير من بضاعتها ملقى على الرصيف بما فيها الكثير من المواد الغذائية والمشروبات المختلفة.

جهاز شرطة المدينة المعروف تاريخيا بالفساد - يوجد اثنين من عناصره في عنبر الإعدام وانتحر اثنان آخران بعد العاصفة - فضل حماية بعض المتاجر على تقديم المساعدة لمثل صاحبنا المشرد المثقف.

استرسل صاحبنا في الحديث عن أمجاد مدينته في أيام أفضل في مقاومتها للعنصريةواحتفالها بالحياة ومهرجانات العقيق الملون وأطباق الفاصوليا الحمراء والأرز في ليالي الإثنين. الرجل الذي أكد أنه ذاكرة متحركة للمدينة وصف المسؤولين المحليين والفدراليين بالمجرمين لأنهم يعرفون منذ فيضان 1927 أن المدينة مهددة بالفيضان لكنهم فضلوا إنفاق مئات الملايير على حروب غير ضرورية أو ولايات غنية وتركوا المدينة وفقراءها يغرقون في الماء بعد أن كانوا غارقين في الأمية والفقر والعنصرية.

قطع حديثنا زميل من الأسوشييدت برس كان يجرى في اتجاه حريق في أحد المنازل المهجورة. تبعنا المصور الذي سيلتقط زميل له بعد عدة أيام جريمة ارتكبها رجال الشرطة في حق مواطن أسود - إلى مكان النيران وسط حي للطبقة الوسطى غير بعيد من الساحة الخالية.

كان مشهد النيران الإضافة الأخيرة لإضفاء مسحة شاملة من الانهيار التام للمدينة. كان رجال الإطفاء بحاجة إلى الماء لإطفاء النيران التي تشتعل بدون سبب واضح إلا أن المدينة الغارقة كانت تفتقر إلى الضغط الكافي للمساعدة على إطفاء لهيبها. تذكرت ما قاله لي سكرول في الحانة التي لا تغلق أبوابها أبدا حول حريق في قلب الحي الفرنسي يبدو مما بقي منه أنه

كان محلا لبيع الألبسة الرياضية. حكى لي سكرول أن الحريق شب في المكان بعد أن تعرض للنهب في اليوم الثاني من ضرب كاترينا. رجال الإطفاء المحليين كانوا غائبين فتولى رجال الإغاثة من الحكومة الفدرالية مهمة الإطفاء إلا أنهم لم يعرفوا كيفية تشغيل الشاحنة إلى أن احترق محركها. وقف مسؤولو الإغاثة يتفرجون على المحل والشاحنة إلى أن احترقا حتى النهاية..

استدرت إلى كريس المصور مقترحا عليه أننا رأينا ما فيه الكفاية وأن وقت الرحيل عن مدينة نيو أورليانز قد أزف.

لكن بعد ليلة أخيرة في السيارة وسط روائح العرق والوقود والتعفن والموت.

أحبك سيدي الرئيس

هل هذه هي الطريقة التي يتلقى بها الرئيس معلوماته من الجنود في العراق ؟

هذا السؤال نزل كالصاعقة على المتحدث باسم البيت الأبيض رغم أنه كان جاهزا برد لم يكن في الحقيقة جوابا ربما لانعدام الجواب أصلا. السائل أيضا لم يكن يريد الحصول على جواب على ما يبدو بقدر رغبته في إحراج المتحدث وبيته الأبيض حيث أصبحت مصادر الإحراج هذه الأيام بالجملة.

الصحفي الأمريكي كان يشير إلى واحدة من أغرب المناسبات العامة في رئاسة جورج بوش.

أخبرت وسائل الإعلام بأن الرئيس سيتحدث عبر الأقمار الصناعية مع مجموعة من الجنود الأمريكيين في العراق للاطلاع مباشرة منهم على سير الأحوال هناك.

قبل أن يدخل الرئيس للقاعة حيث نصبت شاشة كبيرة ملساء رقمية كان الجنود في موقعهم وقد اصطفوا في ثلاثة صفوف على شكل الصور الجماعية التي كنا نأخذها عند نهاية كل عام دراسي. حتى هذه اللحظة كانت الأمور عادية إلى أن دخلت القاعة – والكاميرا تسجل كل شيء – موظفة من البنتاغون وبدأت تخاطب كل جندي على حدة باسمه وطبيعة السؤال الذي سيطرحه عليه الرئيس. الموظفة لم تترك شيئا للصدفة وأعطت تعليماتها لأحد الجنود بأخذ الميكروفون إذا خطر للرئيس أن يطرح سؤالا خارج النص.

– كابتن كينيدي لمن ستعطي الميكرفون ؟

– للكابتن سميث.

بعد لحظات دخل الرئيس وكان وفيا للنص وطرح بالضبط الأسئلة التي قالت الموظفة إنه سيطرحها بطريقة بدت مفتعلة أكثر من اللازم، وجاءت أجوبة المجموعة المختارة من الجنود غير مخيبة لآمال الرئيس من قبيل أن عام العراق «زين»، وإن اختلفت رواياتهم مع ما تقول نشرات الأخبار الليلية أو حتى الدراسات الرسمية لوزارة الدفاع أو الكونغرس.

أحد الجنود العراقيين قال ببساطة «شكرا على كل شيء.. إنني أحبك» حتى هذه الجمل البسيطة فقدت قوتها بفقدان تلقائيتها.

هذا الأسلوب المبالغ فيه في التحضير لا يعد جديدا على جورج بوش، وإن كان قد أبدع فيه إلى أن أحرقه وأفرغه من كل مصداقية.

خلال الحملة الانتخابية الماضية رافقت الرئيس بوش خلال شهر غشت ضمن الوفد الصحفي الذي غطى الحملة الجمهورية في انتخابات الرئاسة. وكانت طبيعة الأسئلة وطريقة إلقائها لا تترك مجالا للشك في أن السائلين إما من موظفي الحزب أو المؤمنين برسالته بشكل أعمى، وبالتأكيد لم تكن غريزة حب الاستطلاع دافعهم في الوقوف أو اختيارهم لطرح السؤال.

كانت الأسئلة تركز على القضايا العزيزة إلى قلب الرئيس والسهلة على لسانه بقوة التكرار من قبيل الإرهاب والضرائب. في أحد التجمعات الانتخابية في ولاية بنسلفانيا تسللت إلى الجمع رغم إجراءات التصفية البالغة التطور ناشطة مجال الإيدز. وبمجرد أن رفعت عقيرتها محتجة على ضعف الموارد المالية في قضيتها المفضلة كانت قد رفعت من شعرها وأخرجت بالقوة من طرف الحرس الرئاسي.

حينما رموها بالباب هرعت الكاميرات باتجاهها إلا أن صاحب المحل من الواضح أنه كان جمهوريا متطرفا - جاء مطالبا إياها مغادرة المكان «لأنها أساءت احترام الرئيس».

لكن المشكلة في ما حدث في البيت الأبيض هو تراجع مستوى الدقة والصرامة الذي ميز الأداء خلال الحملة الانتخابية لأن أحدهم نسي وجود كاميرا في القاعة أثناء تحضير موظفة البنتاغون نشرة جاهزة بالأخبار الجيدة للرئيس.

العديد من المراقبين يرون أن مشاكل البيت الأبيض بما التحضير التعيس واختيار سيدة مغمورة كمرشحة لاحتلال مقعد مدى الحياة في المحكمة العليا جاء نتيجة المشاكل القانونية التي يعاني منها «عقل الرئيس» كارل روف أقوى مستشاريه ومهندس إنجازاته السياسية.

فضيحة تهييء الجنود كانت آخر ما يريد البيت الأبيض سماعه وسط سلسة طويلة من الفضائح والتحقيقات منها على سبيل المثال لا الحصر : جاسوس لإسرائيل من داخل وزارة الدفاع وآخر للفلبين من داخل البيت الأبيض، وأصل التجسس حتى أثناء خضوعه للتحقيق لمدة أربعة أشهر. واعتقال المسؤول الأول عن المشتريات في البيت الأبيض والتحقيق في اثنين من أقوى موظفي البيت الأبيض بشأن فضيحة الإفصاح عن هوية عميلة في السي أي إيه وتحقيق في زعامة الجمهوريين في كل من مجلس النواب والشيوخ هذا فضلا عن العراق وكاترينا جزء من المصائب بالجملة التي بدأت تمطر على البيت الأبيض هذه الأيام.

سيدتي القاضية : أنت أملنا الوحيد

وقف المحامي في المحكمة الفيدرالية في واشنطن وبصوت مشحون بالعواطف أبلغ القاضية العجوز بأن موكله اليمني طلب منه حينما التقاه قبل أيام قليلة فقط أن يناشد المحكمة الأمريكية البعيدة أن تحقق له طلبا واحدا هو إصدار أوامرها لحراس السجن سيئ السمعة أن يتوقفوا عن تغذيته بالقوة لأنه اتخذ قراره النهائي بمفارقة الحياة في كوبا. المحامي الذي كان واضحا أنه يكن الكثير من الرأفة بموكله أبلغ المحكمة أنه بالطبع كمحام لا يستطيع أن يفعل ذلك، ولكنه بأسلوبه الذكي كان فعلها أمام القاضية والقلة القليلة من ممثلي وسائل الإعلام الذين حضروا ربما لأن الاهتمام بدأ ينحسر بكاترينا وزلزال باكستان بعيد جدا.

أعتقد أن تجاهل وسائل الإعلام الأمريكية في الأغلب الأعم لمأساة غوانتانامو من أسوأ الجرائم المهنية على جبين الإعلام الإمريكي ينافس في سوئه تجاهل عدد المدنيين العراقيين الذين سقطوا في المهمة الرسولية لنشر الحرية أو الديمقراطية أو بحثا عن أسلحة لم توجد أصلا.

كان المحامي جون شاندلر يتحدث عن المواطن اليمني محمد بوازير الذي اعتقل في أفغانستان حينما كان يعمل في أحد ملاجئ الأيتام في كابل قبل أن تقرر حركة طالبان طرده من البلاد إلا أنه لم يغادرها بالسرعة الكافية قبل أن يصل الأمريكان.

السيد بوازير الآن ضمن عدد من المعتقلين في الغولاغ الأمريكي الذين يئسوا من العدالة الأمريكية، وقرروا إنهاء حياتهم من خلال إضراب عن الطعام يشارك فيه عدد غير محدد من المعتقلين يختلف بين الحكومة التي تحصره في حوالي عشرين معتقلا بينما ترفعه المنظمات المعنية بحقوق الإنسان إلى أكثر من مائة وخمسين.

السيد شاندلر رسم صورة قاتمة لأحوال موكله حين رآه لآخر مرة مكبلا وهو يرتجف إلى كرسي متحرك وقد اخترق أنفه أنبوبا للتغذية. طلبات المحامي كانت بسيطة ومتواضعة بالمقارنة مع الوضعية النفسية والصحية والقانونية لموكله. أبرز ما طلبه المحامي هو إجراء مكالمة هاتفية بين محمد وأخيه في اليمن - إذا عارضت الحكومة مجيء الأخ - وتطوع المحامي بدفع تكاليف المكالمة والمترجم والسماح للحكومة بالتصنت إليها. المحامي يتطلع إلى إقناع الأخ لأخيه بعدم الانتحار جوعا - خاصة بعد وفاة والديهما - بل زعم المحامي أن جهوده تصب في نهاية المطاف في جهود مساعدة الحكومة لأنها قد تنجح في تجنب حالة وفاة في غوانتانامو قد تتحول باعتراف القاضية إلى كابوس في العلاقات العامة.

المحامي ذهب على نفقته إلى اليمن وسجل نداء من أخ السيد بوازير على قرص مدمج في محاولة لإنقاذ موكله، لكن الحكومة التي تريد تحقيق المسعى نفسه رفضت عرض القرص على المعتقل لأن أخاه يتحدث في الشريط عن أشخاص ماتوا وآخرين في السجن مما قد يعني أن هناك رسائل مشفرة بين الأخوين - على حد تعبير ممثل وزارة العدل.

ذلك التبرير لم يفاجئ أحدا من حكومة أنفقت وقتا طويلا ومالاً كثيرا لكي تتحقق ما في الشريط الإخباري المتحرك على شاشة الجزيرة للتأكد مما إذا كان يحتوى على رسائل مشفرة للقاعدة.

المحامي ختم مرافعته المختصرة بالقول «سيدتي القاضية.. أنت أملنا الوحيد».

صحيح أن القضاء الأمريكي فيه العديد من الشجعان الذين رفضوا إعطاء الرئيس شيكا على بياض في حربه على الإرهاب لكن تجاهل وسائل الإعلام وسعي البيت الأبيض لترجيح كفة اليمين في المحكمة العليا قد يجعل من الأمل الوحيد في القضاء أملا متواضعا.

في القاعة التقيت محاميا كنت قد التقيت به بداية الصيف في غوانتانامو تمثل شركته القانونية أربعة من الرعايا السعوديين من كوكبة المضربين عن الطعام. قدمني لزميله بقوله: «هذا هو الصحفي الذي أزعج جنرال القاعدة البحرية»، في إشارة إلى قطع الجنرال هود المقابلة التلفزيونية في بدايتها بعد عدم ارتياحه من الأسئلة.

في المحكمة كان الخلاف واضحا بين الحكومة وهيئة الدفاع على أمور كثيرة كما هو متوقع إلا أن الادعاء لم يستطع إنكار تعرض بعض السجناء إلى عملية تغذية قسرية في مصحة المعتقل. وحسب رواية المعتقل اليمني التي نقلها المحامي إلى القاضية فإن موكله نقل إلى المصحة حيث ربط إلى السرير وتم غرس أنبوب التغذية في جسده الواهن.

لكن ممثل الحكومة عزا كل معاناة المعتقلين وإصرارهم على الموت جوعا إلى «المبالغة وسوء الفهم». ما أثارني أيضا في تهافت مرافعة «المغرق» هو استخفافه بعدد المضربين وحاول جاهدا إعطاء الانطباع بأن عددهم في تراجع ولكن حينما طلب الدفاع نسخا من الملفات الطبية للمعتقلين المضربين عن الطعام لم يجد غضاضة في الوقوف مرة أخرى أمام القاضية للاحتجاج بأن أعداد تلك الملفات سيكون مرهقا للحكومة بسبب العدد المرتفع للمعتقلين المضربين.

سكوت الحكومات العربية على رعاياها وانشغال وسائل الإعلام الأمريكية بقضايا أخرى وغرق البيت الأبيض في فضائح بالجملة قد يجعل من الإضراب عن الطعام وربما موت أحد المضربين السبيل الوحيد تقريبا لإظهار الإفلاس الأخلاقي والقانوني للفكرة السوداء التي أوجدت غوانتانامو.

حينما تصبح غوانتنامو أكثر رحمة

في المحكمة الفدرالية نفسها التي شهدت مناشدة مجموعة من المحامين رئيسة المحكمة السماح بالاتصال غير المشروط بالمعتقلين المضربين عن الطعام والحصول على ملفاتهم الطبية، كان قاض آخر في قاعة مجاورة قد نظر في قضية أخرى لا تقل مأساوية وتتعلق بمجموعة من المسلمين الصينيين يقبعون في غوانتانامو لأكثر من ثلاث سنوات.. أمريكا اقتنعت أنهم أبرياء لكنها تخاف عليهم من الصين إن رحلتهم إلى بلادهم.

الخارجية الأمريكية ناشدت دولا ثالثة قبول المعارضين الصينيين إلا أن تلك الدول اعتذرت شاكرة خوفا على ما يبدو من الصين. المعارضون المسلمون هربوا من الصين إلى باكستان حيث أصبحت تجارة بيع الأجانب تدر مئات الدولارات على المخابرات والعاطلين وانتهى المطاف بالشبان الصينيين في غوانتانامو بعدما تم إقناع الأمريكيين بأنهم من غلاة السفاحين والإرهابيين.

كنت قد تحدثت إلى بعض المتعاطفين معهم خارج قاعة المحكمة من نفس الأقلية التركمانية المسلمة وأجمع جميع أفرادها على أن غوانتانامو بكل مساوئه وأخبار التعذيب فيه يعد أفضل بكثير من إعادتهم إلى بكين حيث سيواجهون إعداما محققا.

محامو المجموعة الذين يطالبون بتوطين موكليهم في الولايات المتحدة مع أقربائهم الذين تطوعوا لتلك المهمة ما زالوا ينتظرون قرار القاضي انتظار زملائهم في قضية الإضراب عن الطعام.

خلال زيارتي الأخيرة لغوانتانامو نهاية يونيو ومطلع يوليوز الماضي كنت قد طرحت سؤالا بصيغ مختلفة على المسؤولين العسكريين المشرفين على المعتقل عن طبيعة المشاكل والمظالم التي يتقدم بها المعتقلون. الأجوبة جاءت بصيغ مختلفة لكنها في الحقيقة كانت

جوابا واحدا يفيد بأن لا تعذيب ولا إضراب عن الطعام أو تدنيس للقرآن ولا مشاكل ترحيل للصينيين الأبرياء.

رغم أن القيود كانت أخف على تحركنا بالمقارنة مع زيارات سابقة ربما لأن عدد الصحفيين كان ثلاثة فقط في المرة الأخيرة بالمقارنة مع أكثر من ثمانين العام الماضي. لكنني مع ذلك لاحظت في مصحة المعسكر نرفزة وقلقا غير مبررين بالمقارنة مع زيارة العام الماضي حيث استقبلنا الطبيب المداوم وحاول جاهدا الاحتفاظ بابتسامته المترددة في معرض إجابته على الأسئلة المغرقة في الإحراج. لكن استقبلتنا هذه المرة ممرضة شابة بالزيّ العسكري كان الارتباك باد عليها منذ الوهلة الأولى وأكدت منذ البداية عدد المرافق التي سيمكننا زيارتها أو تصويرها سيكون محدودا. بعد أن سألتها في نهاية «الجولة» عما إذا كان بالإمكان أن تتحدث معنا على انفراد نظرت إلى رئيسها الذي أشار برأسه فقبلت إلا أنها امتنعت عن إعطاء اسمها. كان الأمر غريبا بالفعل بالمقارنة مع الزيارة السابقة إلا أنني سأعرف في محكمة واشنطن لاحقا أسباب ارتباك الجندية الشقراء.

احتمال تواجدي في المصحة مع معتقلين ربما تتم تغذيتهم بالقوة لم يكن الأمر الغريب الوحيد خلال تلك الزيارة. خلال زيارتي السابقة علمت بوجود مغربي اسمه محمد العلمي تم اعتقاله في أفغانستان وقلت في نفسي ربما قد يكون ذلك هو السبب في تفتيشي الزائد في المطارات وتذكر الحراس اسمي بسرعة مثيرة للانتباه. وكان من الصعب عليّ أن أتخلص من التفكير في تلك المصادفة التي أعادتني إلى الأيام التي كنت شغوفا فيها بالأفلام الهندية.

منذ زيارتي العام الماضي كنت أعلم أيضا بوجود زميل لي من قناة الجزيرة هو سامي الحاج مواطن سوداني كان مصورا للقناة في أفغانستان واعتقل على الحدود مع باكستان. لكن هذه المرة التقيت محاميه البريطاني الذي حكى لي ظروف اعتقاله وسبب تمديد مدة الاعتقال، وهي الرواية التي أكدتها منذ أيام قليلة صحيفة الغارديان البريطانية من مصادر الحكومتين البريطانية والأمريكية.

واستنادا إلى المحامي فإن عملاء أمريكيين عرضوا على الحاج التجسس على قناة الجزيرة وعلى بعض صحفييها بالتحديد مقابل مساعدته على الحصول على الإقامة بل الجنسية

الأمريكية ومساعدته أيضا على تأليف كتاب عن تجربته في محاولة لاستقطاب أعضاء القاعدة إليه. رفض الحاج العرض السخي قاده إلى شمس الكاريبي والحبس الانفرادي. المحامي أكد لي أيضا أن الحكومة السودانية أبلغت رسميا بقرب موعد ترحيل سامي الحاج إلى الخرطوم لكن انفجار فضيحة تدنيس القرآن الكريم وتزعم الحاج حركة التمرد داخل السجن مدد اعتقاله إلى أجل غير مسمى.

المحامي البريطاني الذي يمثل أكثر من أربعين معتقلا بدون مقابل أكد لي أيضا أن سامي الحاج شعر بسعادة كبيرة حين علم أنني موجود وأنه يبعث بتحياته الحارة. مشاعر من خيبة الأمل والعجز انتابتني لأنني لم أستطع رؤية مواطني وابن قبيلتي الذي لا أعرف الظروف التي ساقته إلى المعتقل الرهيب أو زميلي سامي الحاج الذي قادته مهنته إلى المعتقل ونزعت عنه حميته الدينية أي أمل في ظروف التخفيف.

دجاج بالليمون في غوانتانامو

كانت الرحلة إلى غوانتانامو مع بداية فصل الصيف إيذانا ببداية موسم مزدحم بالأحداث على غير ما كان متوقعا في بدايته. كان الجدل حول تدنيس المصحف الشريف بدأ يتراجع في الصحافة الأمريكية بعد الحملة الشرسة للبيت الأبيض على مجلة نيوزويك، إذ نجحت الحملة في محاكمة المجلة والصحافة عموما على حساب مصداقية القصة نفسها بعد أن ارتكبت المجلة الأمريكية خطأ أدى إلى مقتل عشرات الأشخاص في أفغانستان وباكستان. الواقع أن هذه الحكومة الأمريكية نجحت بشكل يثير «الإعجاب» في استخدام هذا التكتيك في مهاجمة حامل الرسالة حينما لا يروق لها مضمون الرسالة.

المذيع الرئيس في محطة «سي بي إيس» دان راذر اضطر للاستقالة بعد خمسة وعشرين عاما تقريبا كأشهر الوجوه شهرة في المشهد الإعلامي الأمريكي لأنه استخدم وثائق مزورة للتدليل على قصة شبه حقيقية بشأن استخدام الرئيس بوش نفوذ أسرته للتهرب من حرب فيتنام حيث كان يموت معظم أقرانه. الجدل حول راذر غيب تماما النقاش حول مصداقية القصة نفسها. قناة الجزيرة أصبحت الهدف المفضل في محاولة تحويل النقاش عن هفوات الحكومة خاصة العسكرية منها وأصبح من المألوف في واشنطن أن تسمع تعليقا بعد أحداث من قبيل ما وقع في سجن أبو غريب أن الجزيرة ستبث الصور. أي أن أخذ الصور نفسها والقيام بالأعمال الوحشية التي تظهر في الصور يصبح أمرا ثانويا بالمقارنة مع بثه في «قناة معادية» أو أداة إعلامية أمريكية «يسارية» كنيوزويك أو النيويورك تايمز وغيرهما.

من فلوريدا أخذتنا الطائرة الصغيرة جدا التابعة لشركة «الشمس المشعة» التي يبدو أنها لا تملك غير تلك الطائرة الصدئة. كانت رحلة غير مريحة على الإطلاق بسبب الحرارة الخانقة وانعدام أي عنصر للراحة سوى منظر الجزر الصغيرة المنبثة على سطح الكاريبي. كانت

أجواء الرحلة تعطي الانطباع على أننا في رحلة لتهريب المخدرات وليس في طريقنا لواحد من أشهر معتقلات القرن الحادي والعشرين وأكثرها أمنا. آثار حروق بليغة على يدي الربان لم تبعث على أي طمأنينة إلى أن وقعت عيناي على لوحة صغيرة طبعت عليها البسملة في طائرة كنت المسلم الوحيد عليها.

من بين الركاب العشرة كانت مراسلة الميامي هيرالد التي سبق أن تعرفت عليها خلال الزيارة السابقة وكانت بالفعل مرجعا متحركا بشأن المعتقل الذي زارته لأكثر من أربعين مرة.

كان باستطاعة كارول أن تحدثك عن جميع التفاصيل الممكنة بشأن المعتقلين وتاريخ وصولهم وآخر التطورات المتعلقة بشأن قضاياهم المرفوعة أمام المحاكم الأمريكية. كانت كارول التي التقطت بعض كلمات اللغة العربية من تغطيتها للعراق أكثر موضوعية من «زميلنا» من محطة فوكس الذي سنلقاه على الأرض.

قبل أسبوع من وصولنا كان وفد من الكونغرس معظم أعضائه من المشرعين الجمهوريين الناقمين على تغطية نيوزويك قد قرروا الذهاب إلى عين المكان للاطلاع بأنفسهم على حقائق الأمور، وبعد عودتهم عقدوا في واشنطن مؤتمرا صحفيا كان كله مدح وإشادة بالسجانين في غوانتانامو. أحد المشرعين الجمهوريين ذهب إلى حد وصف المعتقل بالمنتجع السياحي حيث يعطى السجناء وجبات الدجاج بالليمون.

في يوم رحلتنا كان كبار القادة العسكريين للمعتقل بمن فيهم الجنرال جي هود المسؤول العسكري الأول عن القاعدة البحرية يدلون بشهادتهم أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب الأمريكي. كادت المناداة عليهم في آخر لحظة إلى واشنطن أن تعرقل زيارتنا التي استغرق الإعداد لها عدة أسابيع. المسؤول عن العلاقات العامة أبلغني أن الجنرال هود يريد الحديث إلينا بعد عودته. وفي انتظار تلك العودة أخذنا الجنود في الجولة الروتينية لمختلف المعتقلات التي يتم توزيع المسجونين فيها حسب درجة تعاونهم مع المحققين أو مع السجانين. كان الهم الأول للمسؤولين العسكريين الذين رافقونا في الجولة هو التأكيد للمشاهدين العرب خصوصا على أن الحراس يحترمون الطقوس الدينية لمعتقليهم

وأن عمليات التدنيس إن وقعت كانت حالات فردية يتعرض مرتكبوها للتحقيق أمام العدالة العسكرية.

لكن كان ممنوعا علينا الحديث إلى المعتقلين أو حتى تصوير وجوههم أو أي علامات تدل على هوياتهم وكان على المصور أن يعطي شريطه للرقيب أو في هذه الحالة رقيبة مدنية تطالع الشرائط وتقرر ما سيسمح ببثه وما لا يسمح.

كانت الرقيبة رغم مهنتها التعيسة سيدة مسترجلة ولكنها مرحة وسريعة الابتسامة. كانت معرفتنا تعود إلى زيارة سابقة وكانت تضحك بصوت عال كلما ناديتها برقيبتي المفضلة.

وعلى الرغم من أن زيارة الجزيرة للقاعدة البحرية كانت محط اهتمام وجدل وحتى معاداة من طرف البعض فقد جمعتنا علاقات إنسانية ومهنية جيدة مع معظم من تعاملنا معهم وإن كان الاحتراس والحيطة والشك المتبادل غير بعيد عن الواجهة العلنية لتلك العلاقة.

مع الجنرال

كان معظم الزوار من صحفيين ومحامين وممثلي المنظمات الدولية التي يسمح لها بزيارة المعتقل يقيمون في الجناح نفسه الذي يديره متعاقدون مدنيون يبدو أن معظمهم من الفلبين. كان واضحا أن العسكريين يكرهون اختلاطنا خاصة الصحفيين بالمحامين خشية «تلويث» معلوماتنا لأن أكره ما لديهم في حملة العلاقات العامة هم المحامون ثم الصحفيون ثم المعتقلون السابقون - وليس بالضرورة بذلك الترتيب.

أثناء حديثي مع أحد المحامين حول وجبة الدجاج بالليمون أبلغني أن موكله أكد له أنه لم يذق طعم الليمون منذ وصوله إلى غوانتانامو مضيفا أن الحراس عرضوا على المعتقلين أكل الآيس كريم إن قبلوا فعل ذلك أمام كاميرات التلفزيون لكن المعتقلين رفضوا في خطوة جماعية نادرة. كان المحامون مصدرنا الوحيد عن حالة المعتقلين وظروف اعتقالهم وهي معلومات لا توفرها الجولة الرسمية مع الحراس بين مختلف المعتقلات التي تتأرجح بين الزنازن الجماعية التي تحيط بساحة تتوسطها صومعة «الحرية»، كما تسمى رسميا حيث يقف جندي مدجج بالسلاح وبين سجون بنيت بالإسمنت المسلح على غرار السجون عالية المراقبة داخل الولايات المتحدة.

وعلى ذكر صومعة الحرية كان استخدام تلك الكلمة بطريقة تعسفية ومبتذلة لدرجة أفقدتها الكثير من معانيها السامية حتى قنينات الماء البلاستيكية اسمها «ينابيع الحرية» في محاولة على ما يبدو لإقناع الحراس بسمو مهمتهم المثيرة للجدل .

كانت تلك المهمة هدفا لهجوم حاد ذلك الأسبوع من منظمة العفو الدولية التي وصفت غوانتانامو في تقريرها السنوي بالغولاغ الأمريكي في إشارة منافسي سيبيريا الستالينية التي تحتل مكانا مخيفا ومقيتا في الذاكرة الجماعية للأمريكيين كنتيجة مباشرة لحرب الدعاية القوية مع ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي. حتى الرئيس بوش الذي أشار في أكثر من مناسبة

لتقارير المنظمة في تبرير الحرب على صدام حسين بعد أن أعوزته باقي الأدلة انبرى للهجوم بحدة على المنظمة الدولية.

قبل يوم من رحيلنا حان موعد المقابلة مع الجنرال جي هود بعد أن عاد ليلا من واشنطن ومثوله أمام لجنة القوات المسلحة مع باقي كبار مساعديه. انتقلنا إلى مركز القيادة العامة في القاعدة التي تشبه مدينة صغيرة في أمريكا الخمسينات كما أبلغنا العام الماضي قائد عسكري آخر كان فخورا بانعدام الجريمة في غوانتانامو.. كان مصدر فخره الثاني أن الإجراءات الأمنية المتخذة حول المعتقلات لن تسمح حتى «بتسلل فأر من تلك الأقفاص» على حد تعبيره.

استقبلنا الجنرال بالحفاوة التي قد تسمح بها المواقف المسبقة لكل طرف على الطرف الآخر.

فضل إجراء المقابلة في كافتيريا صغيرة في مركز القيادة حيث دار بيننا حديث خفيف أثناء استعداد المصور لوضع الإنارة وباقي الترتيبات. سألني عن ظروف الزيارة، أبلغته أنها كانت جيدة ولكن الممنوعات حرمتنا من كل ما كنا نرغب في الوصول إليه.. ضحك لجوابي، وسرعان ما اختفت الابتسامة بعد أن حاولت معرفة رأيه الشخصي في الإشراف على مكان تشبهه الكثير من الأوساط بغولاغ أمريكا وبمعسكرات النازية. كما كان متوقعا اتهم تلك الأوساط بالجهل وعدم معرفة ما يجري على الأرض. سألته لما إذن لا تسمحون للكاميرات بتصوير المعتقلين والحديث إليهم ما دمتم صورتم صدام حسين. فاجأني رده حينما أنكر معرفته بطلوع الرئيس العراقي المخلوع على التلفزيون كما أنكر تصريحا لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد قال فيه : «إن معتقلي غوانتانامو سيبقون هناك حتى لو مثلوا أمام المحاكم وتبثت براءتهم». لكن السؤال عن رأيه في تصريحات المشرعين كان أكثر مما يحتمل خاصة قضية الدجاج بالليمون وقصة الآيس كريم.

كانت المقابلة قد استغرقت حوالي سبع دقائق من أصل نصف ساعة خصصت لنا حينما سألته عن رأيه في التقارير الإخبارية التي أفادت بأن عملية «الاستجواب» التي حضرها المشرعون الأمريكيون أثناء زيارتهم كانت مفبركة وتم إخراجها بطريقة تعطي انطباعا مخالفا

لما يجري في الحقيقة. هنا انقبضت أساريره بغضب واضح قائلا : «إننا لا نكذب على المسؤولين الأمريكيين ولا نكذب على الشعب الأمريكي ولا نكذب على العالم وبهذا تنتهي مقابلتي معكم». وقبل أن يكمل جملته الأخيرة نزع الميكرفون بنرفزة واضحة من على سترته وسط اندهاش الجميع معربا قبل مغادرته الكافيتيريا الصغيرة عن امتعاضه مما أسماه النبرة الاتهامية في الأسئلة.

بعد عدة أسابيع وفي مدينة المحمدية وتحت أنظار المخابرات المغربية أكد لي أحد المعتقلين السابقين صحة ما ذهبت إليه التقارير الصحفية وتقارير منظمة العفو الدولية وما ذهب إليه المحامون.

من غوانتانامو إلى اسكوتلاندا

كانت قمة الثمانية الكبار في غلين إيغلز في سكوتلاندا تعد بخلاف علني بين الرئيس بوش ومضيفه توني بلير بشأن المساعدات لإفريقيا. كان رئيس الوزراء البريطاني يريد أن يوظف القمة للتكفير عن بعض أخطائه الدولية إزاء حزبه والأغلبية الساحقة من الشعب البريطاني التي عارضت الحرب في العراق وتريد سياسة أكثر مسؤولية إزاء فقراء العالم. الرئيس بوش الذي كان قد استخدم قمة العام الماضي في سي أيلاند في ولاية جورجيا الأمريكية كمحطة انتخابية لإصلاح ذات البين مع زملائه في نادي الأغنياء للتأكيد للناخبين على أن أمريكا ليس مكروهة أو منبوذة كما يدعي خصوم الحرب على العراق لم يعد بحاجة إلى العالم بعد أن ضمن ولاية ثانية.

كان البيت الأبيض قد قبل طلبنا لتغطية القمة ضمن الوفد الصحفي الرسمي الذي سيرافق الرئيس الأمريكي ألى القمة.

خلال حوالي أربع وعشرين ساعة كنت قد انتقلت من القاعدة البحرية في غوانتانامو إلى قاعدة أندروز الجوية في ضواحي واشنطن للانضمام إلى باقي الزملاء الصحفيين الذين سيغطون القمة المرتقبة. كنت أشعر دائما ببعض الضيق من مرافقة الفيلق الصحفي للبيت الأبيض الذي يختلف في نظري على الفيالق الأخرى التي تداوم مثلا في الخارجية أو الدفاع بضيق أفق الأسئلة والتركيز على التفاصيل التافهة أحيانا على حساب الصورة العامة للسياسة الأمريكية تجاه مختلف القضايا. أكثر من ذلك تسود ثقافة قبلية بين المداومين في البيت الأبيض تجاه أي «غريب» لا يأتي يوميا للإفادة الصحفية، وكان هذا السلوك يطال الصحفيين والمصورين وتقنيي الإنارة والصوت. لم تكن عجرفة بعضهم لا تنافس إلا جهلهم بالعالم، وخاصة المنطقة العربية التي يقضون نصف حياتهم يسألون المتحدثين حولها. ربما لهذه الأسباب كنت أرتاح أكثر مع مراسلي الخارجية الذين يهتمون بحكم اختصاص الوزارة

بقضايا العالم وإن كانت أسئلة بعضهم تعطيك الانطباع بأنها كتبت في مقر الوزارة الأولى الإسرائيلية.

كانت الرحلة مريحة وشملت فيها خدمات الدرجة الأولى جميع مقاعد الطائرة في اتجاه كوبنهاغن حيث كان من المفترض أن يقوم الرئيس بوش بزيارة قصيرة للدانمارك لتقديم الشكر لحكومتها على ما قدمته لحربه في العراق. كان اهتمام الصحفيين من «أهل الدار» أو من الغرباء قليلا بالزيارة، لهذا استغلت الأغلبية حفاوة بلدية المدينة التي أخذت كل من أبدى الاستعداد في زيارة عبر الممرات المائية التي تشبه إلى حد كبير مدينة البندقية الإيطالية.

في مطعم الفندق التقيت الأخوين العيادي من مدينة مراكش وكانا ككل المغاربة في مثل هذه الظروف نموذجا عاليا في الحفاوة والكرم والأخوة الصادقة. ضحكنا كثيرا على نكتة الطيار العيادي رغم أنها كانت على حساب واحد من أبناء القبيلة ولم نختلف في تلك الساعات القليلة سوى عمن سيدفع الفاتورة.

لكن النقاش بعد ذلك مع بعض الزملاء من إحدى المحطات التلفزيونية الأمريكية أخذ منحى حادا حين وصل النقاش إلى الإرهاب والعرب والمسلمين وشرائط بن لادن وكان دليلا إضافيا على أن الفجوة بين العالمين أعمق بكثير مما يتصور معظمنا.

صباح اليوم التالي أقلعنا في اتجاه غلين إيغلز في اسكوتلاندا حيث كان من المقرر أن تفتتح القمة أشغالها في اليوم التالي. الإجراءات الأمنية كانت مشددة للغاية كما كان متوقعا وأكثر قليلا، هذه المنطقة شهدت سقوط طائرة بانام على رأس مزارعيها في لوكربي القريبة وقتلت بعضهم بعدما قتلت جميع الركاب قبل حوالي خمسة عشر عاما.

التقليد الذي بدأه الرئيس الأمريكي في القمة السابقة باستدعاء زعماء بعض الدول الفقيرة استمر هنا مما ضاعف الاهتمام وضاعف عدد الصحفيين الذين جاؤوا من مختلف أنحاء العالم لتغطية القمة التي كان رئيس الوزراء البريطاني يريد توظيفها للتأكيد على أن الغرب لا يهتم فقط بعمليات الاجتياحات والحروب.

صبيحة اليوم التالي أخذت الحافلة من الفندق إلى مكان انعقاد المؤتمر حيث اجتزنا العديد من نقاط التفتيش المسلحة وأجهزة المسح الجسدي بحثا عن المعادن والمتفجرات.

بعد استكمال الإجراءات الإدارية الضرورية واستخراج البطاقة الرسمية توجهت إلى المركز الصحفي بحثا عن الزملاء من مكتب لندن الذين سبقوني إلى المكان.

في بهو المركز وجدت جميع الصحفيين المتواجدين في القاعة متحلقين على شاشات التلفزيون الضخمة التي كانت تغطي خبرا هاما على ما يبدو. اعتقدت لأول وهلة أن الأمر يتعلق بخبر يتعلق بتصريح أو انسحاب من القمة. لكن بعد لحظات قصيرة تبين أن العاصمة البريطانية لندن كانت تتعرض ساعتها لهجوم تحت الأنفاق.. لقد كان اليوم السابع من الشهر السابع .. كانت بريطانيا تعيش نسختها من الحادي عشر من شتنبر.

الأربعة الصغار يدمرون قمة الثمانية الكبار

انضاف تاريخ السابع من يوليوز من ذلك اليوم البريطاني إلى قائمة سوداء من التواريخ التي بدأت بالحادي عشر من شتنبر مرورا بالسادس عشر من ماي المغربي والحادي عشر من مارس الإسباني كأيام فاصلة بين البراءة والدمار. عادت بي الذكريات إلى صبيحة الحادي عشر من سبتمبر في بهو نادي الصحافة القومي في واشنطن، وكيف كان بعض الزوار يتطلعون إلى الشاشات الصغيرة المعلقة في البهو يتابعون ما كان يعتقد الجميع أنه حادث ارتطام طائرة صغيرة بمركز التجارة العالمي. غني عن القول أن الحادث دمر القمة تماما بل أن عددا كبيرا من جيش الصحفيين الذي جاء لتغطية القمة انتقل إلى لندن القريبة نسبيا لمعاينة ونقل الحدث. القمة انتهت بالفعل بالتزامات غير مسبوقة تجاه إفريقيا، ولكن الالتزامات جاءت مفتقرة للزخم الإعلامي وحتى لإمكانية المساءلة لاحقا عما إذا كانت خطوة في مجال العلاقات العامة أكثر منها إحساسا بمسؤولية الأغنياء تجاه الفقراء. كان حديثي مع الزملاء الأمريكيين ما زال يرن في أذني حول العراق وفلسطين والإرهاب والقاعدة والعرب والمسلمين، ووجدت نفسي أشعر بحالة عميقة من الاكتئاب حملتني على تجنب رفاقي في رحلة واشنطن في أروقة المؤتمر حتى لا أجد نفسي في موقف دفاعي لأنني كنت أمثل بالنسبة له أقرب «سفير» للمفجرين والإرهابيين يمكنهم الحديث إليه بل تحميله المسؤولية الأخلاقية على الأقل.

رجعت إلى غرفتي في الفندق وحاولت تتبع التغطية المكثفة للحدث على المحطات التلفزيونية البريطانية، ورغم مشاعر الاكتئاب كنت أحاول أن أستحضر التغطية الأمريكية لكارثة الحادي عشر من شتنبر لمقارنتها مع ما يفعله أبناء العمومة البريطانيين.

كانت ارتباطاتي المهنية السابقة قد قادتني إلى لندن مرات عديدة بين محطة شبكة الأخبار العربية ووكالة الأسوشييدت برس اللتين تتخذان من لندن مقرا لهما. لم تجمعني تلك

الزيارات بمعارف وأصدقاء مغاربة وعرب وبريطانيين فحسب بل قادتني إلى بعض المناطق المجاورة للأحداث إذ كانت أسماء محطات المترو غير غريبة على مسامعي، وكانت تلك المعرفة بالمكان على بعدها الزمني نسبيا تزيد من عمق الشعور بالصدمة.

كان أسوأ ما سمعته أثناء التغطية عالية المهنية للبريطانيين أن بعض الركاب الذين كانوا ينتظرون المترو لحظة الانفجار قد فقدوا بصرهم من شدة الانفجار ولسبب من الأسباب بقيت تلك الصورة عالقة في ذهني وحرمتني من النوم لليلة بكاملها. كنت أتخيل مسافرا.. أي مسافر أو مسافرة في انتظار المترو في اتجاه العمل أو لقضاء حاجة في بداية اليوم وينتهي الأمر على سرير في أحد المستشفيات بدون إمكانية النظر.. كانت الفكرة مخيفة ومرعبة للغاية. ومع ذلك خفف علي بعض الإحباط سلوك وسائل الإعلام البريطانية، وحتى المسؤولين البريطانيين الذين بذلوا جهودا مهنية مضنية بهدف التذكير بأن في بريطانيا جالية مسلمة كبيرة العدد محذرين من استهداف أفرادها جميعا بجرم قلة قليلة منها. كانت القنوات على اختلاف اتجاهاتها الإيديولوجية حتى سكاي نيوز الأخت الشقية لفوكس نيوز سيئة السمعة أكثر مسؤولية وتحضرا من أختها الأمريكية. رغم أنه كانت للبريطانيين أسباب أكثر وجاهة من الأمريكيين لإظهار التعصب والعنصرية والرغبة في الانتقام لأن الفاعلين خرجوا من صلب بريطانيا لهجة وثقافة وطريقة في الحياة.

كانت العودة في اليوم الثاني إلى المركز الصحفي مضيعة للوقت، لأن القمة قد انتهت بالفعل قبل أن تبدأ في حين عمقت مشاعر الإرهاق والإحباط من الإحساس ببطء الزمن.

بعض الصحفيين الأمريكيين فقدوا أعصابهم مع الشرطة الاسكتلندية التي بالغت في التفتيش وإعادة التفتيش مع بداية رحلة العودة في المطار. كان الجميع يتصرف وأعصابهم على حافة الانهيار، الشرطة التي تضيع وقتها على صحفيين، وصحفيون يشعرون أنهم أكثر أهمية من الأحداث المحيطة بهم.

على متن الطائرة نفسها في رحلة العودة عاد النقاش إلى قضايا الإرهاب والصراع العربي الإسرائيلي والحرب على العراق، وكان الاختلاف في وجهات النظر أعمق من أي وقت مضى، لكن ذلك النقاش فوق السحاب رغم حدته أحيانا مر مرور تلك السحب من تحت بطن الطائرة لإغراقه في الأكاديمية في وقت يحدد فيه المتطرفون داخل دوائر صنع القرار وفي الحجرات والكهوف المظلمة مادة النقاش وزمان ومكان العناوين الإخبارية.

في الطريق إلى الميسيسيبي

كان الخروج ليلا من نيو أورليانز أصعب بكثير من الدخول إليها نهارا، بعد أن لعبت معنا كاترينا لعبة التحدي للعثور على طريق يابسة، واستغرق الأمر منا وقتا طويلا لكوننا كنا ندور في متاهة بحثا عن الجسر اليابس والصالح للاستعمال. شعرنا بقدر غير قليل من الارتياح بترك المدينة الغارقة والمظلمة وراءنا أخيرا ونحن نمني النفس بالعودة إلى القرن الحادي والعشرين. كانت وجهتنا شرقا نحو ولاية ميسيسيبي التي لحقها دمار هائل لكن دراما المدينة الغارقة في لوزيانا جعل نيو أورليانز تغطي على ما عداها في تلفزيونات وصحف العالم.

تمنياتنا لم تعمر طويلا بعد أن وقفنا في بلدة على الحدود بين لوزيانا وميسيسيبي بحثا عن فندق نقضي فيه الليلة بعد أن أخذ منا الإرهاق مأخذه. كان الجواب بالنفي في جميع الفنادق التي طرقنا بابها في الساعات الأولى من الصباح. كنا قد بدأنا التعود على المبيت في السيارة ،ولم نصب بكثير من الإحباط حينما لم يبق غيرها كخيار.

صباح اليوم التالي استفقنا في موقف كبير للسيارات بدت فيه بعض السيارات وقد تحولت هي الأخرى لبيوت إقامة لمدة ليست بالقصيرة. حاولنا التعويض بتناول وجبة فطور ضخمة مكافأة على حرمان الأيام القليلة الماضية واتجهنا نحو الطريق رقم عشرة في اتجاه مدينة بيلوكسي على ساحل خليج المكسيك. على الطريق وفي إحدى زياراتنا المتكررة لمحطات البنزين توقفنا عند محطة للشاحنات الضخمة التي تعبر الولايات ويتوقف فيها السائقون للتزود بالوقود والغذاء.. والحمام. ما كدنا نقرأ لوحة الحمام حتى طرنا فرحا كالصبيان الفرحين بلعبة جديدة. لم يكن الدوش مثاليا وكانت أرضه البلاستيكية بحاجة إلى عملية غسيل جدية ربما أكثر من حاجتنا لكن الوقوف تحت المياه الدافئة المنسكبة أعاد إليّ شعورا بإنسانيتي من جديد.

عامل المحطة الذي كان يسهر على أن يدفع الزبناء ما بذمتهم مقابل الوقود أو الحمام كان مسلحا ولم يبذل أي جهد في إخفاء مسدسه الضخم المتدلي من حزامه كما في أفلام رعاة البقر.. استخدام المياه أو الوقود دون دفع الثمن قد يكلفك حياتك هنا.

مع الاقتراب من مدينة بيلوكسي كلمت سيدة لبنانية موظفة في إحدى وكالات الأسفار نتعامل معها في واشنطن ورجوتها أن تحجز لنا غرفتين في أي مكان في ميسيسيبي وألا تكترث بالسعر أو بالمكان لأننا كنا مستعدين للذهاب إلى أقصى طرف في الولاية أو حتى ولاية الأباما المجاورة لقضاء الليلة كآدميين.

عند مدخل بيلوكسي طالعتنا لوحة تنصح بوجود أماكن للإقامة ومحطات للتزود بالوقود. اقترحت على المصور الذي كان يتولى ساعتها السياقة أن نتوقف في تلك الاستراحة لنعيد ملأ خزان السيارة بالوقود، ونجرب حظنا فقد نجد غرفا في الفنادق المعلن عنها في اللوحة.

تحولنا في اتجاه المنعرج المفضي إلى مكان الاستراحة وما كدنا نبدأ في الإطلال على المكان حتى أصبنا بصدمة كبيرة إذ تبخرت التمنيات بوجود فندق أو وقود لأن المكان كان استراحة طويلة الأمد على ما يبدو لكاترينا. الفندق أو ما تبقى منه بدا وكأنه ضرب بصاروخ جوي إذ بدت غرفه العارية من سقفها ومحتوياتها على السواء مدمرة بالكامل. في محطة البنزين أو ما كان يعرف بمحطة البنزين تحولت إلى ركام ضخم من الخشب وعدادات الوقود وأسرة الفندق وثلاجاته الصغيرة. تتبعنا الطريق الصغيرة إلى ما كان تجمعا سكنيا على خليج جميل لا يحيط به إلا الدمار.

قررنا تسجيل ما فعلته كاترينا بهذه المنطقة الصغيرة التي لا يبدو أن كاميرا قد دخلتها من قبل ولم نر في طريقنا سوى بعض سيارات الجيش والشرطة التي كانت تقوم بدوريات للحفاظ على ما بقي من ممتلكات ملقاة في كل مكان.

على مدخل منطقة سكنية أو مَا كان منطقة سكنية سمعت قهقهات عالية لرجل لم أتبين مكانه بعد. لكن تلك الضحكة كانت شيئا غريبا وجميلا وأمرا غير متوقع على الإطلاق وسط المكان الذي يبدو أنه تعرض لقصف وزلزال في آن واحد. اقتربنا من مصدر تلك الضحكة

الجهورة وكان رجلا في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات من عمره يتحدث إلى سيدتين في نفس المرحلة العمرية تقريبا. عرفنا من عملية التعارف السريعة أن إحدى السيدتين وكانت مظاهر الثراء والجمال بادية عليها رغم الحزن الظاهر على عينيها الدامعتين.

علقت بسرعة على ضحكة الرجل ووصفت له مدى سعادتي بسماع تلك الضحكة وسط هذا الخراب وأشدت برباطة جأشه حتى قبل أن أسمع قصته. وبالفعل بدأ الرجل يحكي عما ضاع منه في تلك البقعة الجميلة التي كانت مكونة من أربع عشرة وحدة سكنية تطل جميعها على الماء لم يبق منها أو من محتوياتها شيء.

كاترينا مرت من هنا

على خلاف لوزيانا، ضحايا كاترينا في هذا التجمع السكنى كانوا نسبيا من الأغنياء من ذوي البيوت الصيفية يتخذونها كمنتجع لصيد الأسماك في المياه المتواجدة بوفرة قبل أن تبزغ منه كاترينا وتغير كل شيء في بضع ساعات.

في ساحة التجمع السكنى السابق كانت الأسرتان تنتزعان من فك كاترينا القاتل بعض الذكريات الصغيرة من صور فوتوغرافية وأواني ومقتنيات من أسفار بعيدة. كان الرجل صاحب الضحكة الجهورية يتحدث بدون كلفة، وقص عليّ رحلته إلى دبي وكيف غيرت رأيه فيما كان يسمعه عن تخلف العرب وعيشهم في الصحراء مع الجمال إلى أن نزل في أفخم فندق رآه في حياته في مدينة دبي. لكن الرجل الذي يعمل كوسيط في بيع الأجهزة الطبية انهار تماما حينما بدأ يتحدث إلى الميكرفون. تحدث عن فقدان البيت وزورقين كانا راسيين في الماء لم ينجح في العثور على أي أثر لهما. أخذنا إلى ما بقي من بيته يرشدنا وكأنه يحدث نفسه إلى المكان الذي كان يوقف فيه سيارته وإلى أدوات الصيد التي بقيت واقفة في مكانها رغم أن كاترينا أخذت البيت كله ومعظم محتوياته ورمت به في تلك الكومة التي رأيناها عند مدخل التجمع السكني. بدا لي أن الرجل كان بحاجة إلى من يستمع إليه ولم يكن مهما بالنسبة إليه إذا كان الأمر يتعلق بتلفزيون عربي ربما لن يرى نفسه فيه أبدا. كان يشير باستغراب كبير كيف أن الإعصار لم يكسر صحنا واحدا من الصحون الصينية الفاخرة التي كانت في بيته أو بيوت الجيران. كانت بالفعل ظاهرة غريبة في تلك الأشلاء من الممتلكات المرمية والسيارات المقلوبة، وكأن كاترينا كانت تتلاعب بها بطريقة طفولية إلا أنها لم تكسر صحون الأكل أو الديكور التي رأيناها ملقاة في كل مكان. فجأة قطع علينا الحديث صوت يشبه البكاء آت من المكان الذي كانت فيه الزوجة تبحث بين الأنقاض والدمار عن بعض الممتلكات المبعثرة. الزوجة نجحت في العثور على تمثال صغير لقناص يحمل صنارة

بيده. كان واضحا أن السيدة تغالب مشاعر الحزن والفرح لدى عثورها على ذلك التمثال الذي أخبرتنا أنه كان هدية من ابنهما الذي قتل في حادث سيارة قبل خمس سنوات. أخبرت زوجها وهي تعانقه والاثنان يبكيان أن العثور على التمثال لوحده كان مبررا للعودة. كان بالفعل منظرا مؤثرا للغاية ووجدت نفسي متعاطفا مع أسرة في كارثتها الإنسانية رغم اختلافنا في كل شيء تقريبا. ونجحنا في تلك اللحظات القليلة التي قضوها معنا في ربط أواصر تحولت إلى صداقة عبر البريد الالكتروني على الأقل. قبل مغادرتهما أصرّا على استضافتنا للغذاء إلى جانب السيارة بساندويتشات وماء بارد كانت الزوجة قد أحضرتها في صندوق مثلج. لم تفلح محاولاتنا لصد كرمهما خاصة بعد تلك اللحظات المفعمة بالمشاعر، لكنهما أصرا على إشراكنا في وجبتهما محذرين من أن جميع الفنادق والمطاعم مغلقة في المنطقة، وقد يمر علينا وقت طويل قبل أن نجد مكانا نأكل فيه. ودعنا الزوجين بعناق حار وكأننا كنا نعرف بعضنا البعض منذ سنين.

كانت المادة التي جمعتها في ذلك المكان جزءا من تقرير أعتبره من أفضل ما أنجزته في حياتي المهنية.

تحولنا إلى الركام الذي خلفته كاترينا ندقق في محتوياته من ساعات حائطية توقف الزمن فيها ساعة ضرب الإعصار إلى زجاجات مليئة بالمصبرات إلى بقايا مراحيض لم تبق منها إلا ثقب في الأرض. فجأة سمعنا منبه السيارة من ورائنا.. كان الرجل وزوجته يغادران ربما للمرة الأخيرة بيتهما الصيفي الفاخر ومن وراء مقود السيارة خاطبني الرجل ضاحكا «ألا تعتقد محمد أن بن لادن له يد في كل هذا ؟» واصل ضحكته الواسعة قبل أن يواصل طريقه بين مكان بيته على ضفة في الطريق ومحتوياته على الضفة الأخرى.

الأسرة الثانية التي بقيت تحاول هي الأخرى البحث عن بعض ذكرياتها من بين الأنقاض لم تكن أفضل حظا وإن كانت أقل كلاما. الزوجة التي رفضت الاقتراب من موقع البيت تركت الزوج الذي كان يخلع نظارتيه بين الحين والآخر لمسح عينيه تمكن من العثور على ساعته اليدوية الصفراء التي كانت داخل السيارة .. إلا أنه لم يعثر على السيارة.. كانت تلك واحدة من مظاهر الشقاوة التي مارستها كاترينا على ضحاياها لكن الرجل كان فرحا بالعثور على ساعته اليدوية كطفل صغير عثر على لعبته كان الكبار قد أخذوها منه. عرفنا فيما بعد

من الزوجة المصدومة أن البيت كان نتيجة اذخار سنوات من عمرهما، وكانا ينويان التقاعد ليقضيان أيامهما الأخيرة يتمتعان بالمنظر الجميل. الرجل أكد لنا أيضا أن شركة التأمين رفضت تعويضهما لأنهما لا يملكان تأمينا ضد الفيضان، وزعم ممثلو شركة التأمين أن الماء دمر البيت قبل أن تأتي الرياح. واستدار إليّ وكأنه يريد أن يخفف عن نفسه من الكارثة المضاعفة «هل كانوا يريدون مني البقاء هنا لتصوير ما حدث للتأكيد لهم أن بيتي ضاع بالرياح وليس بالماء. لأنني كنت سأضيع أنا أيضا».

بحثا عن الفندق

في الطريق إلى بيلوكسي كنت أفكر فيما سمعته من أخبار عن اختفاء مقاطعات بكاملها، بشرطتها ورجال مطافئها ومدارسها. صبيحة الإعصار وبعد نفاذ الوقود تماما من البلدة أمر رئيس بلدية المدينة رئيس شرطتها بتشغيل محرك شاحنة كبيرة لنقل الوقود كانت داخل مقر إحدى الشركات الخاصة. رئيس الشرطة تردد وأبلغ رئيس البلدية بأنه التحق بسلك الشرطة ليلقي القبض على اللصوص لا أن يصبح لصا. رئيس البلدية أمره وخيّره بين تشغيل الشاحنة أو الذهاب إلى السجن ليبحث عمن يستطيع فعل ذلك. زوجة حاكم الولاية التي كانت تتنقل بين مقاطعة وأخرى قالت في إحدى الاجتماعات «أبلغوني بكل ما تريدون من الحاكم.. إنني آخر من يتحدث إليه قبل أن ينام».

كاترينا غيرت الشيء الكثير في بطن أمريكا الرخو على ساحل خليج المكسيك..

كاترينا تسببت أيضا في أزمة دبلوماسية صامتة بين واشنطن وبريطانيا رغم أن لندن لم تفعل أكثر من الهرع لمساعدة أبناء العمومة في واشنطن تماما كما فعلت في حربهم ضد العراق. بعد أن تبين للعالم هول الكارثة نتيجة التغطية الإعلامية المكثفة انتبه سكان 10 دوانيينغ ستريت - ربما قبل المقيمين في البيت الأبيض في شارع بنسلفانيا - فقرروا استجابة لنداء الدم والأواصر الإنسانية المدنية منها والحربية إرسال إربعمائة إلف وجبة بريطانية جاهزة حطت في مدينة ليتل ريك ولاية أركنسو المجاورة ومن هناك بدأ شحنها على متن الشاحنات الضخمة لنقلها برا إلى مدينة نيو أورليانز وباقي المناطق المنكوبة في لويزيانا.

إلا أن الوجبات التي كلفت الشعب البريطاني حوالي خمسة ملايين دولار ونصف لم تصل أبدا إلى الذين أرسلت إلى مساعداتهم بسبب خشية السلطات الأمريكية على ضحايا الإعصار من .. جنون البقر.

الوجبات الجاهزة التي ستفقد صلاحيتها بجنون أو صواب البقر في الشهور الأولى من العام القادم ما زالت مكدسة في بعض المخازن مقابل ستة عشر ألف دولار شهريا حتى زلزال باكستان لم ينجح في معالجة المشكلة لأن لحم الخنزير هذه المرة وليس جنون البقر حال دون شحنها إلى ضحايا الكارثة التي ضربت شبه القارة الهندية ومعظمهم من المسلمين.

على بعد بضعة أميال من بيلوكسي توصلت بمكالمة هاتفية أدخلت علينا الكثير من البهجة. كانت موظفة وكالة الأسفار من واشنطن على الخط الآخر تبلغني بكثير من الفرحة أنها نجحت أخيرا في حجز غرفتين لنا على الإنترنت في مدينة بيلوكسي نفسها. فاتن أكدت لي أيضا ضرورة التوجه إلى الفندق لأن الحجز نهائي وإذا غيرنا رأينا فلن ننجح في استعادة ثمن الغرفتين. أكدت لها أننا سنذهب إلى ذلك الفندق حتى لو كان تحت الأرض وودعتها شاكرا لها مساعدتها القيمة. بدأنا نخطط لبقية اليوم بعد أن استرحنا من همّ المبيت وقررنا أن نتوجه إلى الشاطئ الذي كان الهدف الرئيسي لعين الإعصار. في إحدى محطات البنزين لم تسعفنا الخرائط التي اشتريناها، لكننا حينما بدأنا نسأل المواطنين المحليين بدورنا وكأننا أتينا من كوكب آخر.. سألنا أحد السكان بلهجة لا تخلو من تهكم واضح «أتعرفون أننا ضربنا بإعصار من الدرجة الرابعة ؟ كيف تسألان عن الطريق إلى الشاطئ ؟» طمأنا الرجل على أننا لسنا سائحين لكنه عاد ليثبط من عزيمتنا بالتأكيد على أن جميع الجسور إلى المنطقة إما قد انهارت أو أغلقت.. والفندق ؟ - لم أسمع عنه من قبل.. أجابنا الرجل قبل أن يغادرنا بعد أن سئم على ما يبدو من أسئلتنا الغبية.

البحث عن طريق بديل تطلب منا وقتا أطول مما كنا نتوقع، حاولنا أن نستغل وجودنا وسط البلدة بتصوير بعض مظاهر الدمار البادية على معظم المحال التجارية، وإن كانت بنسب متفاوتة. استرعى انتباهي محلا يبدو أنه كان ناديا للألعاب قد انهار تماما، ووضع على بعض جنباته قطع كبيرة من البلاستيك في محاولة على ما يبدو لحماية ما بقي من آلات تحت الأنقاض. لكن ما لفت أنظارنا هو اللوحة التي وضعت في باب أو ما كان يعرف بالباب كتبت عليها بخط اليد وبخطوط عريضة «المكان مغلق» ضحكنا كثيرا من العبارة متسائلين عمن كان سيفكر خلاف ذلك.

كلمة «مفتوح» أمام واجهة أحد مطاعم الوجبات السريعة أغرتنا بأخذ ساندويتش سريع قبل أن نكمل طريقنا إلى الشاطئ. أحد عمال المطعم بدأ الحديث معنا بعد أن لاحظ وجود الكاميرا. قال لنا إنه كان يعمل في مطعم في ملكية الشركة نفسها على الشاطئ وأن كاترينا دمرته تماما. كرر الرجل على مسامعنا قصة سمعنا عشرات المرات حول الغياب الآثم للحكومة محلية كانت أو اتحادية، وأن الناس تركوا لمواجهة مصيرهم لوحدهم. حينما وصل الحديث إلى أبناء الرجل الذي كان يبدو في الثلاثينات ومن أصل أمريكي لاتيني بسبب لهجته الإسبانية الواضحة اغرورقت عيناه مؤكدا أن أبناءه يقيمون في ولاية بعيدة مع أحد أقربائه. سألناه قبل مغادرة المطعم إذا كان قد سمع بالفندق غولف بيتش رويزرت..

- بالتأكيد.. لقد كان إلى جانب مطعمي.

لم تعجبني صيغة الماضي في فعل «كان» فعدت للتأكد مرة أخرى.

- كيف هو الآن ؟

- لم يعد له وجود.

كاترينا لا تحب القمار فوق الماء

نعي الفندق من صاحب المطعم لم ينسف نهائيا آمالنا مرجحين كوننا نتحدث ربما عن فندقين مختلفين. بعد حوالي ساعة من مغادرتنا المطعم وصلنا إلى نقطة تفتيش غاب عنها المفتشون فسمحنا لأنفسنا باجتيازها. كانت الساعة تقترب من حوالي السادسة مساء حينما وصلنا إلى شارع الشاطئ.. واكتشفنا أن المكان الذي كنا نبحث عنه لجمع مادة مصورة عن الدمار وعنوان الفندق شيء واحد تماما.. كان شارع الشاطئ.

صحيح أن الشاطئ بقي لكن لم يبق شيء على الإطلاق من الشارع. عشرات الفنادق والمطاعم التي دمرت تماما. بعض الفنادق بقيت واقفة لكن كان يبدو أن يدا عملاقة دخلت إلى أحشائها وأخرجت كل شيء. لوحات إعلانية عن المطاعم بقيت واقفة بينما لم يبق أثر لتلك المطاعم أو الفنادق في بعض الحالات لم يبق وجود حتى لمخلفات تلك المطاعم من كراسي ومراحيض ومطابخ.. كل شيء اختفى.

حاولنا تتبع ما بقي من أرقام البنايات ومعظمها كان على الأرض بحثا عن الفندق الذي حجزته لنا فاتن.. وجدناه بالفعل أو وجدنا ما بقي منه. من الواضح أنه كان فندقا جميلا ما بقي من نافورة كانت في مدخله الرئيس على ما يبدو خلفت وراءها ينبوعا فوضويا يطلع من بين الأحجار ويحدث الصوت الوحيد الذي يعكر صمت المقابر الذي خيم على المنطقة بكاملها.

على المدخل السابق للفندق ترك ممثلو وكالة الطوارئ الفيدرالية لوحة تؤكد أن المكان لا يصلح للاستعمال البشري ويهدد من يزيح الورقة بأوخم العواقب. اتصلت بفاتن موظفة وكالة الأسفار ووصفت لها حالة الفندق الذي حجزته لنا مهددا بفضحها أمام العالم إلا أنني تعهدت لها أيضا بعدم ذكر اسمها رفقا بصداقتنا.

بجانب فندقنا وقف فندق الهوليداي إن.. بقي منه مدخله الذي يشبه بشكله المعمار العربي وقد علته أعلام الولايات المتحدة وشركة «هوليداي إن» لكن بقية الفندق نفسه رحلت مع كاترينا.. كانت مناظر الدمار فوق كل وصف تجعل المتأمل فيها يتقزم بشكل مخيف أمام جبروت الطبيعة.

غير بعيد من الفندق رمقنا ثلاثة أشخاص كانوا قد خرجوا إلى التوّ من سيارتهم وبدوا مذهولين وهم يشيرون في نفس الوقت تقريبا إلى بناية ضخمة أمامهم. اقتربنا من السيدة الشابة ومرافقيها وتعرفنا منهما على أن البناية الضخمة التي يقفون أمامها هي في الحقيقة كازينو عائم كان داخل المياه على بعد ما لا يقل عن ست كيلومترات من الموقع الذي كنا نقف فيه. كان الأمر صعبا على التصديق بالنسبة إلي. الشبان الثلاثة نسفوا أي إمكانية للشك حينما أكدوا لنا أنهم كانوا يعملون في الكازينو نفسه. منظر السفينة الضخمة التي كانت عائمة ورمتها كاترينا إلى الشاطئ سيتكرر معي خمس مرات تقريبا خلال أربع وعشرين ساعة.
كريس المصور الذي كان يرافقني وكان من مواليد ميسيسيبي أشار إلى التناقض بين الخطاب الديني الرسمي لأمريكا هذه الأيام وخاصة في الجنوب حيث تدخل الولاية انتخابيا فيما يعرف بالحزام الإنجيلي والذي أصبح مقصورا على الجمهوريين والديمقراطيين المحافظين وبين سياحة القمار. الولاية المحافظة التي يهاب مشرعوها الله قرروا عام 1990 أن يسمحوا بشرعية القمار ما دام يتم فوق الماء سواء فوق نهر الميسيسيبي أو خليج المكسيك في محاولة لمساعدة المنطقة المعوزة اقتصاديا.. «الحل الوسط» نجح بالفعل في تشغيل أكثر من أربعة عشر ألف شخص بطريقة مباشرة وعشرات آلاف آخرين في قطاعات لها صلة من فنادق وسيارات أجرة ومطاعم. خزينة الولاية حصلت العام الماضي فقط على مليارين وثمانمائة مليون دولار من ضرائب شركات القمار.. إلا أن كل ذلك انتهى في بضع ساعات.. حتى إشعار آخر على الأقل. كاترينا رمت بجميع سفن القمار بدون استثناء إلى الشاطئ. الغريب أنها وضعتها بطريقة «مؤدبة» لم ترم بها رأسا على عقب ولكنها وجدت لها أماكن مستقيمة على اليابسة بعد أن خربت جميع محتوياتها من الداخل. حينما كنا نصور في موقع آخر في الميسيسيبي ورأينا بقية الكازينوهات العائمة واقفة فوق الرمال قلت لكريس: «إن كاترينا كانت بكل تأكيد لا تحب القمار على الماء»، ولاية الميسيسيبي سمحت مؤخرا بممارسة

القمار على اليابسة حتى لا تيبس كل مصادر دخلها وفرص تشغيل بعض مواطنيها. القرار أثار بالطبع حفيظة المحافظين والمتدينين من سكان المنطقة.

غادرنا الميسيسيبي في اتجاه مدينة موبيل في ولاية الأباما حيث كانت زوجتي قد نجحت في حجز غرفتين لنا في أكبر مدن الولاية مؤكدة أن الحجز نهائي، وأنها وضعت بالفعل ثمن الغرفتين على بطاقتها الائتمانية. شكرتها لكنني أبلغتها أن فاتن من وكالة الأسفار قالت لنا الشيء نفسه بشأن الفندق في بيلوكسي وجئنا إلى المكان لكن الفندق تخلف عن الموعد.

عواصف بالجملة

في مطار غولف بورت في الميسيسيبي كانت القوات المسلحة بالوجبات الغذائية الأمريكية والألمانية وقنينات الماء تنظم رحلات متكررة على المناطق المنكوبة وتأخذ معها في بعض الرحلات ممثلي وسائل الإعلام في محاولة على ما يبدو من الحكومة الفدرالية لمحو بعض الآثار الكارثية لتماطلها في نجدة مواطنيها. بدا الاستغراب واضحا على محيا العسكري المسؤول عن العلاقات العامة حينما أعربنا عن رغبتنا في الانضمام إلى باقي زملائنا في رحلة عبر إحدى طائرات الهليكوبتر. بعد نقاش مطول ومحموم أبلغنا الجندي الشاب أنه عاد لتوه من العراق واصفا مستوى حنق زملائها في العراق وحتى في المطار نفسه من تواجدنا. وبعد مشاورات عديدة مع كبار مسؤوليه جاءت الموافقة أخيرا على اصطحابنا في جولة مختصرة وأكد لنا الجندي الشاب أنه «دافع» كثيرا عن رغبتنا وسط معارضة زملائه إلا أنه كما قال يؤمن بضرورة إشراكنا. باستثناء مخاطبنا كانت العلاقة باردة تماما مع باقي الطاقم الذي بدا وأنه ينفذ مهمة عسكرية غير راض عنها. حاولت أن أركز على مناظر الدمار من خارج النافذة حيث بدا الشاطئ الطويل لخليج المكسيك وكأن مكنسة ضخمة مرت بكل بناياته وبيوته وفنادقه ومطاعمه السريعة والبطيئة ومسحتها مرة واحدة.

بعد عودتنا إلى الأرض قررنا القيام بجولة أخيرة على الأقدام بين حطام كاترينا، واسترعت انتباهنا ما بقى من كنيسة ضخمة كانت تطل على البحر مباشرة. كان حوالي ثلاثة أشخاص من رعية الكنيسة يتفقدون حطامها بين نسخ الأناجيل المبعثرة والمبللة. في مقابلة قصيرة مع أحدهم حاولت أن أعرف منه موقفه كرجل متدين تعامله مع قدر إلهي. كانت أجوبة الرجل عميقة ومؤثرة وإن رفض توجيه اللوم إلى الحكومة الفدرالية لأن جورج بوش ما زال يتمتع هنا بشعبية كبيرة. خطرت لي فكرة إنجاز تقرير من وجهة نظر رجال الدين فسألت أحد الرجال الثلاثة إن كان يعرف مسجدا أو مركزا إسلاميا في المنطقة. كان الجواب بالإيجاب مؤكدين

أن المركز لا يبعد إلا ببضع دقائق عن الشاطئ. بين أزقة مهمشة غير بعيد عن الكنيسة وفي أحياء تسكنها أغلبية سوداء وجدنا أخيرا ضالتنا. كان عبارة عن بيت صغير خشبي صغير مصبوغ باللون الأزرق كتبت عليها الفاتحة على مدخله وبجانب الباب المغلقة للبيت المهجور أثارت انتباهنا عبارة على لوحة صغيرة تؤكد أن المكان «للبيع». اللوحة الغريبة قضت على فكرة التقرير.

بعد أقل من أسبوع كنت أجرى مع المصور نفسه وراء عاصفة أوفيليا في ولاية نورث كارولينا. رغم أن هذه الأخيرة خلفت خسائر قدرت بحوالي ثمانمائة مليون دولار إلا أنها كانت كسحابة صيف بالمقارنة مع كاترينا أو أخواتها اللائي كن في طور التكوين في أعماق المحيط الأطلسي. لكن كاترينا التي غيرت سلوك الحكومة، غيرت أيضا ردود فعل الصحافة الأمريكية والدولية، وبدأت تسابق الرياح إلى مكان ضرب الإعصار القادم تماما كما أصبحت كل حقيبة مجهولة تؤدي إلى إغلاق المطارات وقطع البرامج الاعتيادية لكبريات المحطات الأمريكية بعد الحادي عشر من شتنبر.

بعد أوفيليا بأيام قليلة جاءت ريتا لتفرض مرة أخرى على ما بقي من سكان نيو أورليانز الرحيل عن بيوتهم المتعفنة لكنهم هذه المرة بحثوا عن مكان آخر للجوء عبر تكساس التي كانت هي الأخرى في عين الإعصار.

كاترينا علمت مسؤولي تكساس ضرورة التحضير مبكرا والدعوة إلى إجلاء السكان في وقت مبكر. سكان نيو أورليانز من الفقراء لم يستطيعوا الخروج، ولكن سكان هيوستن الميسورين خرجوا في عملية إجلاء جماعية، ووجدوا أنفسهم محاصرين في الطرق السريعة التي أصبحت بطيئة لدرجة الانهيار التام بعد أن نفذ الوقود من جميع محطات البنزين. إغفال المسؤولين لذلك التفصيل الصغير سيؤدي إلى مقتل بعض السكان الطالبين للنجاة.

بعد حوالي أسبوع جاء دور ويلما هذه المرة في ولاية فلوريدا المدللة من الأعاصير ومن الحكومة على السواء. قضينا خمسة أيام في أحد فنادق مدينة فورت مايرز جنوب غربي الولاية ننتظر الإعصار الذي كان يعاقب المكسيكيين في شبه جزيرة يوكوتان وضيوفهم من السياح الأمريكيين. الخسائر قدرت في الجزء الأمريكي من الإعصار بستة ملايير دولار. في

:

مدينة كانكون السياحية كانت مجموعة من مدراء وكالات الأسفار الأمريكية والكندية تعقد مؤتمرا لها وتمني النفس بموسم غير مسبوق من السياح والمداخيل إلا أن المجموعة لم تقل «إن شاء الله» على ما يبدو لأنها قضت أربعة أيام في الملاجئ دون حمام حسب تعبير أحد أعضائها.

في مسجد صغير في فورت مايرز تعرفت من بعض أفراد الجالية المسلمة كيف أن السلطات المحلية والفدرالية جاءت بكل ثقلها العام الماضي قبل إعصار تشارلي وكانت سخية إلى أبعد الحدود.. كانت تلك المعاملة هي ما يحز في نفوس السود من سكان نيو أورليانز. لكن تشارلي كإعصار ويلما ضرب فلوريدا التي يحكمها أمير آخر من آل بوش. وجاء إعصار تشارلي على خلاف كاترينا قبل أيام قليلة من الانتخابات الرئاسية العام الماضي.

كاترينا بداية المصائب

بعد إعلان الولاية منطقة طوارئ تستحق المساعدات الفيدرالية توجه الرئيس بوش في واحدة من رحلاته المكوكية إلى منطقة الكارثة بعد إعصار ويلما ليتفقد مع شقيقه جيب في فلوريدا حجم الدمار وربما للهروب من واشنطن حيث كانت تتعاظم رياح أسوإ إعصار سياسي يجهز على رئاسته.

بعد رحيل ويلما بساعات بلغ عدد قتلى الجنود الأمريكيين في العراق إلى حاجز الألفين، وتجددت الأسئلة حول جدوى الحرب وتكلفتها المالية والبشرية رغم حملة العلاقات العامة التي أعقبت «المصادقة» على الدستور لتسويق أوجه النجاح للفتح الأمريكي في بلاد الرافدين.

هيرييت مايز التي اختارها الرئيس بوش لعضوية المحكمة العليا انسحبت بعد هجوم عنيف تعرضت لها من القواعد التقليدية للرئيس متهمة إياها بالغباء وعدم التجربة والرئيس بالزبونية وقصر النظر. الرئيس الذي زعم أنه لم يجد أفضل منها لشغل المنصب، وأكد أنه رأى قلبها، وتأكد أنها ستصوت في المحكمة على هوى المتدينين المسيحيين، بلغ كبرياءه وهو يرى نفوذه يتهاوى بين حلفائه قبل خصومه.

وفي الأسبوع نفسه جاءت نتائج أم الأعاصير السياسية التي تعصف ببيت جورج بوش الأبيض حينما وجه المحقق الخاص خمس تهم بالكذب إلى لويس سكوتر ليبي مدير مكتب نائب الرئيس ديك تشيني.

التهم لا تجعل صاحبها يواجه ثلاثين سنة سجنا ومليون وربع المليون دولار غرامة فحسب، بل كشف أن هذه الحكوّمة ليس كما ادعت أفضل أخلاقا وطهرا من سابقاتها.

ليبي أحد عرابي الحرب على العراق كان ينتقم من أحد المشككين في الحرب في إطار حرب أهلية صامتة تجري أطوارها في واشنطن بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين

البيت الأبيض خاصة مكتب نائب الرئيس. المحاكمة -إن تمت - ستحتم أداء ديك تشيني بشهادته حول أخلاقيات حكومة قررت الذهاب إلى الحرب بأدلة أو بدونها بل لجأت إلى أوسخ الأساليب الممكنة للانتقام ممن أبدوا رأيا معارضا.

كانت كاترينا قد هزت صورة الرئيس الحازم الساهر على أمن البلاد والعباد، وجاءت قائمة الاتهام لتعري الواجهة الأخلاقية والدينية التي رفعتها كأداة انتخابية وأداة للحكم أيضا.

التهم أكدت أيضا لعنة الولاية الثانية التي أصابت جميع الرؤساء الذين فازوا بولاية ثانية منذ الحرب العالمية الثانية لأن السلطة تشجع على الفساد، والسلطة المطلقة تشجع على الفساد مطلقا - كما قال أحد حكماء واشنطن.

حيثيات التهم تؤكد قاسما مشتركا بين كل الفضائح التي عصفت بكبار المسؤولين الأمريكيين وهي أن الجريمة الأصلية تكون أقل بكثير من محاولات التستر والكذب. لأن الكذب على المحققين بعد أداء القسم يعد جناية فدرالية تعرض صاحبها لخمس سنوات سجنا. والسيد ليبي أقوى مستشاري ديك تشيني الذي يعد أقوى نائب رئيس في تاريخ الجمهورية كذب - رغم كونه محاميا - كذب عددا كافيا من المرات ما جعله يواجه ثلاثين سنة في حين أن قائمة التهم لا تشير مطلقا إلى الجريمة الأصلية وهي الكشف عن هوية عميلة سرية للسي أي إيه انتقاما من زوجها.

من ووتر غيت إلى مونيكا لوينسكي ومن ايران غيت إلى ليبي غيت سقط كبار نجوم الحكومة في قبضة العدالة وحتى بين وراء القضبان لأنهم كذبوا على المحققين وليس بالجرائم الأصلية التي أشعلت فتيل التحقيق في المقام الأول، في انتخابات منصب الأحكام في ولاية فرجينا هرب المرشح الجمهوري من رئيسه بوش خوفا من الظهور مع «الخاسر» في أسوء مظهر لانهيار سريع لجاذبية رئيس لا توازيها سوى السرعة التي ارتفعت بها في أعقاب الحادي عشر من شتنبر.

ربما ذكرت الحادثة الرئيس بوش بمقولة أحد أسلافه في الخمسينات هاري ترومان الذي نقل عنه قوله «إذا كنت تريد صديقا في واشنطن فاشتر كلبا».

كل عام وانتم بخير.

فِي الطريق إلى سَاوْبَاوْلُو

(مشاهد برازيلية)

في الطريق إلى ساوباولو

كانت الرحلة طويلة من أتلانتا إلى ساوباولو البرازيلية العاصمة الاقتصادية لهذا العملاق اللاتيني الذي انتقل باقتصاده في فترة وجيزة نسبيا إلى منزلة بين منزلتي الثمانية الكبار وباقي فقراء العالم.

كان البرازيليون يستعدون للذهاب إلى صناديق الاقتراع لإبقاء الرئيس لولا داسيلفا أربع سنوات أخرى، أو إعطاء فرصة لمنافسه من وسط اليمين جيرالدو ألكيمن فرصة وقف المد الميال للنأي عن الولايات المتحدة الذي كاد أن يسيطر على جميع انتخابات جنوب القارة ووسطها في سنوات بوش الأمريكية.

لولا يفتقر للتصريحات النارية لجاره وصديقه الحميم هوغو تشافيز ضد واشنطن، لكنه أكثر صرامة من جاره المثير للجدل في وقف بوش «عند حده» بقتله مشروع الرئيس الأمريكي الرامي إلى توسيع منطقة التبادل التجاري لتشمل كل أمريكا اللاتينية. لولا أعرب عن الاعتقاد بأن الرغبة البوشية لا تعدو أن تكون طمعا في ضم القارة لنفوذ العملاق الشمالي. تشافيز يلعن بوش صباح مساء، ويصفه بالشيطان لكنه لا يجد ضيرا في بيع الشيطان وقودا ويأخذ دولاراته.

أكثر من تسع ساعات في الطائرة كانت كافية للنوم والصحو مرات متعددة، وقراءة كل الصحف المتواجدة بما في ذلك أسماء الوفيات التي لم أسمع بأصحابها أبدا في الحياة.

أثار انتباهي هذه المرة أن الإجراءات الأمنية في المطار كانت على غير العادة سريعة وسلسة ربما ساعد في ذلك إطلاق سراح محمد العلمي من غوانتانامو، رغم بقاء آخر بنفس الإسم في القفص الكاريبي أو حاملا لبطاقات الاشتراك في كل شركات الطيران التي تعرض عليّ العضوية لجميع الأميال، وربما للتأكد من هويتي الحقيقية أيضا. لكن معرفتي بأن قائمة

الممنوعين من السفر ما زالت تضم ستة عشر من مرتكبي هجمات الحادي عشر من سبتمبر رغم رحيلهم الأبدي، أو رئيس بوليفيا جدد لدي المخاوف من أن عدم إيقافي كان ربما خطأ سيتم «تصحيحه» لاحقا.

وأخيرا حطت الطائرة فوق أرضية مطار ساوباولو في بلد البن والأمازون وسحرة كرة القدم وراقصي السامبا. البرازيل تسابق الزمن للالتحاق بعالم الكبار بصناعاتها وثرواتها الزراعية لكن إجراءات المطار ما زالت عالم ثالثية بامتياز، وإصرار موظفة جمركية وحيدة على مراقبة كل المسافرين جعل وقت الانتظار للخروج من المطار أقرب إلى طول الرحلة الجوية إليه.

بمجرد فتحي جهاز التلفون توصلت برسالة إلكترونية تفيد بوقوع أسوأ كارثة جوية في تاريخ البرازيل. كانت حتى تلك اللحظات طائرة مفقودة فوق غابات الأمازون وعلى متنها مائة وخمسون راكبا. الخبر كان رئيسيا في كل الوكالات العالمية طوال اليوم، وغطى على الانتخابات التي أتيت من أجلها أصلا. في مقر المرشح لولا قلت لموظفة وكالة رويترز التي كانت توفر لوجستيك التغطية المباشرة ما إذا كان وجودنا جميعا صدفة جيدة من الناحية الإخبارية أم أنه يتعين علينا أن نحمد الله جميعا أننا لم نكن على متن الطائرة موضوع التغطية.

صعوبة المكان الذي سقطت فيه الطائرة في قلب غابات الأمازون حيث يتراوح علو الأشجار بين خمسين وستين مترا جعل الوصول إليها صعبا وتغطية الحدث أكثر صعوبة بسبب شحة المعلومات وانعدام الصور. التصريحات المتضاربة بشأن اصطدام طائرة البوينغ بطائرة أصغر حجما كانت في طريقها لتسلم لمالكيها في الولايات المتحدة كان دليلا على أن البرازيليين – لحسن حظهم – على عكس الأمريكيين غير متعودين على مثل هذه الحوادث.

لكن الاصطدام ومقتل مائة وخمسة وخمسين شخصا في ثوان معدودة عزز من القلق من انتظار رحلة العودة جوا ولأكثر من تسع ساعات ونصف.

ووترغيت برازيلية

كانت كل استطلاعات الرأي العام قبل أسبوع تشير إلى أن الرئيس لولا ديسيلفا سيفوز بولاية ثانية بسهولة كبيرة لأن خصمه جيرالدو ألكيمن سياسي بدون كاريزما أو جاذبية، رغم كونه حاكما سابقا لولاية ساوباولو أكبر ولايات البرازيل وأغناها. الرئيس لولا كان وما زال يتمتع بشعبية كبيرة بين فقراء بلاده الذين يعدون هنا بعشرات الملايين بعد أن أصبح أول رئيس يدعمهم بطريقة مباشرة عن طريق «منحة العائلة»، وهي بطاقة تخول فقراء البرازيل الحصول على ما يعادل ثلاثمائة وخمسين درهما شهريا بشرط الحفاظ على الأولاد في المدرسة، وتلقيحهم في صفقة من الصعب على فقراء أي بلد رفضها.

لكن الرئيس لولا استعان بمخططين لحملته الانتخابية يفضلون الأساليب القذرة التي استقوها على ما يبدو من الحملات الانتخابية الأمريكية، بل ومن حملة ريتشارد نيكسون أكثرها قذارة على الإطلاق.

في حملة اثنين وسبعين كانت استطلاعات الرأي العام تشير إلى أن نيكسون سيفوز بسهولة على منافسه الديمقراطي، وفاز بالفعل بنسبة عالية للغاية، ولم يكن بحاجة إلى التجسس على الحزب المنافس في الفضيحة التي عصفت برئاسته بعد أقل من عامين.

مدير حملة لولا الانتخابية قدم استقالته قبل أيام قليلة من الاقتراع، بعد أن تبين أن موظفين في الحملة صوروا وهم يدفعون مبالغ مالية بالريال المحلي والدولار الأمريكي لشراء معلومات قذرة عن خصوم لولا السياسيين. في يوم الاقتراع طلعت كبريات الصحف البرازيلية بصور الأموال المكدسة بعد أن سربها المحققون الفدراليون للصحافة البرازيلية في توقيت غير بريء. أحد الصحفيين الفرنسيين المقيمين في البرازيل عزا ذلك إلى كون الطبقة الغنية في البلاد ومن بينها مالكو كبريات الشركات الإعلامية لا يحبون لولا ولا سياساته الاجتماعية ويريدون النيل منه بأي ثمن.

سنوات الحكم الأربع التي قضاها لولا اتسمت أيضا بالكثير من الفضائح والاستقالات التي هزت صورة النقاء السياسي التي سوقها لولا عن نفسه في حملته الانتخابية الأولى، لكن فقراء البرازيل الذين يضعون بطاقة المنحة العائلية في جيوبهم، ويستطيعون الآن شراء المواد الأساسية بأسعار أرخص مما كانت عليه من قبل مجيئه لم يعيروا اهتماما كبيرا لأخبار الفضائح، وحافظوا على دعم الزعيم النقابي وماسح الأحذية السابق الذي يعتبرونه واحدا منهم.

ليلة الاقتراع كنت أتحدث إلى المسؤول عن الصحافة الدولية في حملة السيد لولا، وحينما عرف أنني مغربي انفرجت أساريه بابتسامة عريضة، وأخبرني أن زوجته مغربية وصحفية أيضا تعمل لصحيفة لوفيغارو الفرنسية.

المفاجأة الأخرى كانت الوجود العربي المكثف في حملة السيد لولا من فلسطينيين ولبنانيين من الجيلين الأول والثاني وعلى علاقة بالزعيم البرازيلي لعشرات السنين. أحد الناشطين العرب في حملته أبلغني أن الرئيس لولا هو أفضل زعيم عربي يعرفه بسبب مواقفه الداعمة للجالية العربية في البرازيل وللمواقف العربية في الخارج. وأشار الناشط اللبناني البرازيلي إلى أن الرئيس لولا أوفد ست عشرة طائرة إلى لبنان خلال الحرب الأخيرة لإجلاء الرعايا البرازيليين المحاصرين.

الأرقام غير المؤكدة تشير إلى أن عدد اللبنانيين في البرازيل أو البرازيليين من أصل لبناني يفوق عدد اللبنانيين في لبنان نفسه.

كثافة الوجود العربي في البرازيل كانت إحدى أكبر المفاجآت في أكبر دول أمريكا اللاتينية مساحة وسكانا، وإن كان بعض سكانها لا يعتبرون أنفسهم من «اللاتين» لكونهم في الدولة الوحيدة المتكلمة بالبرتغالية وسط جوار يتحدث كله بالإسبانية.

بين السيارات المصفحة والأطفال المشردين

البرازيل بلد السامبا والبن وكرة القدم والمانغو والأمازون والمسلسلات الطويلة، لكنها أيضا أرض الجريمة والأطفال المشردين ومدن القصدير. في ساوباولو تطالعك المحلات التجارية بين الفينة والأخرى بلوحات تعلن عن محلات لبيع السيارات المصفحة كحماية إضافية للأغنياء الجدد الذين يستطيعون الآن شراء طمأنينة كانت إلى عهد قريب وقفا على رؤساء الدول وكبار الزعماء.

في إحدى دور بيع السيارات شرحت لنا إحدى مديرات البيع المستويات المختلفة التي تتعرض لها السيارة بين الرئاسي والدبلوماسي ودرجة رجال الأعمال، يمكنك أن تختار عيار الرصاصة التي تخاف منها أكثر لتحصين سيارتك منها بما يكفي من الحديد السميك والزجاج المقوى والريالات الوفيرة.

أغنياء البرازيل يدفعون ما يعادل ثلاثين مليون سنتيم لتصفيح سيارة عادية لاتقاء شر مجرم محتمل أثناء الوقوف عند الإشارات الحمراء. أحيانا تبدو السيارات صغيرة وعادية تفوق قيمتها الأصلية ما أنفق على تحصينها. أحد البرازيليين الذين تملك أسرته ثلاث سيارات مصفحة أكد لي أنه يشعر بالأمان ما دامت السيارة مغلقة الأبواب، لكن السيارات نفسها أصبحت هدفا مفضلا ومغريا للأشرار لشعورهم بالحاجة إلى طمأنينة النفس إذا كانوا يخططون لسرقة أحد البنوك، وما قد يتبع ذلك من مواجهة مسلحة مع الشرطة.

ساوباولو لوحدها جعلت من البرازيل أكبر منتج ومستعمل للسيارات المصفحة في العالم، بعد أن نجحت في إزاحة بوغوتا الكولومبية ومكسيكو سيتي المكسيكية عن المراتب الأولى في تجارة العنف الجديدة.

بين الفقر وتجارة المخدرات وانتشار الفساد بين أجهزة الشرطة والاتساع غير المحدود للمراكز العمرانية، يبدو أن الجريمة المنظمة وغير المنظمة أصبحت قدر كبريات المراكز الحضرية في أمريكا اللاتينية بمستويات تفوق نسبيا في عنفها ما يشهده المجتمع الأمريكي في الشمال.

إرث الأنظمة الدكتاتورية التي عبثت بمصير شعوب القارة بدعم من واشنطن أيام الحرب الباردة ما زال يكبل معظم دولها بفوارق طبقية بشعة لم يزدها غول العولمة الجديد سوى المزيد من البشاعة.

الأطفال المشردون بدون عائل، وأحيانا يعول عليهم لإعالة أسرهم أو ما بقي منها على الأقل، من أبرز مظاهر ذلك الإرث المخجل رغم الجهود الحكومية وناشطي المجتمع المدني للحد من الظاهرة التي توجد البرازيل أيضا من بين زعامات قوائمها السوداء.

في مواقف الإشارات الحمراء من الصعب أن تفرق بين السيارات المصفحة والعادية، لكن وجود الأطفال المشردين لا تخطئه العين الذين علمتهم التجربة حساب الثواني القليلة للقيام بحركات بهلوانية، أو محاولة بيع بضاعة ما للسائقين قبل أن تسمح الإشارة الخضراء بهروب الزبناء المحتملين.

قبل بضع سنين اهتزت البرازيل على فضيحة مذبحة الأطفال المشردين في ريو دي جانيرو حينما اعتقد بعض رجال شرطة المدينة أن أفضل طريقة للتخلص من المشكلة هي إطلاق النار على الأطفال النائمين في إحدى كنائس المدينة وقتل ثمانية منهم.

كرة القدم تتجاوز هنا كونها اللعبة المفضلة أو الأكثر شعبية، بل أيضا ورقة للخروج من مدن الصفيح إلى السيارات المصفحة.

وبالفعل صعدت الحسابات التجارية والمالية الخالصة لتنقلات اللاعبين وتبادل العقود بشأنهم إلى واحدة من مداخيل البلد المحترمة تماما كمداخيل البن والمانغو والسيارات المصفحة.

في أم مدن الصفيح في ريو دي جانيرو

استغرقت الرحلة حوالي خمس ساعات بين ساوباولو وريو دي جانيرو بالسيارة، زاد خلالها منظر فصل الربيع في بداية أكتوبر المناظر المتسارعة من خلف النافذة غرابة وجمالا.

ريو ليست من أجمل مدن البرازيل فحسب، بل واحدة من أجمل مدن العالم إن لم تكن أجملها على الإطلاق رغم التحذيرات المتواصلة لمرافقينا البرازيليين بضرورة الاحتراس من النشالين ومنفذي الجرائم السريعة.

الإطلالة على المدينة من المرتفعات المتعددة التي تحيط بها وتتخللها خاصة من موقع تمثال السيد المسيح عليه السلام من المناظر التي تأخذ بالألباب، حيث ترى من موقع فوق السحاب المدينة الممتدة إلى أسفل في اتجاه المحيط، بل ترى أيضا كيف قسم السكان المدينة مواقعهم بين الفقراء والأغنياء، وكان المنظر الأجمل من نصيب الفقراء.

أثرياء المدينة منذ أيام المستوطنين البرتغاليين اختاروا السكن بقرب البحر ربما للسهر مباشرة على عمليات تصدير السكر واستيراد العبيد في حين بدأ الفقراء في بناء أكواخهم في سفوح الجبال. ومع تداول الأيام امتدت مدن الصفيح إلى أعلى متحدية صلابة الصخور، في حين حوصر الأغنياء بين الجبال وغابة من الأحياء الفقيرة والبحر. انعدام نظام للصرف الصحي في تلك الأحياء – التي تعد مدنا بمقاييس دول أخرى – حرمت الأغنياء من السباحة في الشواطئ الجميلة.

مرافقنا البرازيلي رضخ أخيرا لرغبتنا الجماعية في زيارة أحد تلك الأحياء من الداخل، واستعان في ذلك بأحد المرشدين السياحيين المحليين الذي يبدو أنه تخصص في سياحة العوز والفقر، وكانت معرفته بالمكان مثيرة للإعجاب بالفعل.

قبل أن نصعد إلى حي روسينيا، أشهر أحياء الصفيح في ريو، تلقينا تعليمات دقيقة تماما كما تعودنا عليها في غوانتانامو أو أماكن رسمية أخرى، لا يريد المشرفون عليها تصوير كل شيء. سيليفيو أبلغنا بلهجة العارفين أن السلطة الحقيقية والفعلية تعود هنا لتجار المخدرات الذين يفضون النزاعات حتى بين الرجل وزوجته، وأن الشرطة هنا ليست عاجزة فقط، ولكن غير مستحب في الاستعانة بخدماتها من طرف «المسؤولين» الحقيقيين عن المكان. طمأنت مرشدنا إلى أننا لا نود إغضاب «السلطات المحلية» وأننا لن نصور إلا ما ستسمح به «الجهات العليا».

في «قطاع غزة» أحد الأحياء داخل مدينة روسينيا، حكى لنا سيليفيو عن محاولة اثنين من الأشرار سرقة بنك صغير في «القطاع» الذي يعد واحدا من أسوأ الأحياء أمنا في مدينة الصفيح العملاقة، وحينما تنبه السكان اتصلوا طبعا برجال العصابات، لأن الاتصال برجال الشرطة ممنوع هنا في الأراضي «المحررة»، وحينما جاء «أصحاب الحال» أطلقوا النار على اللصين غير المحظوظين وتبين فيما بعد أنهما كانا من رجال الشرطة، ولم يتم العثور على جثتيهما أبدا. أشار سيليفيو إلى المكان الذي أقف عليه مشيرا بسبابته إلى الأرض الإسمنتية قائلا «من غير المستبعد أنهما مدفونين تحت قدميك».

كلما ارتفعنا نحو قمة الجبل كلما ازدادت الروائح التي تزكم الأنوف، في حين ازدادت المناظر جمالا من هذه القمم الفقيرة المطلة على عمارات الأغنياء في السهل الضيق. سيليفيو علق على المفارقة قائلا : «هذه من خاصياتنا في البرازيل أي أننا البلد الوحيد في العالم الذي يعيش فقراؤه في الأعلى بينما يسكن أغنياؤه في أسفل».

الفوضى منظمة هنا بشكل مثير رغم غياب «المخزن»، الأسلاك الكهربائية ممتدة لكن أسلاكا «إضافية» لا تمر بالضرورة عبر العداد تفوق الأسلاك الأصلية. روسينيا تصدر جريديتين يوميتين ولها محطة خاصة على الكيبل. سيليفيو عزا الفوضى المنظمة إلى خطأ قاتل ارتكبته دكتاتورية البلد في السبعينات والثمانينات، حينما سجنت الناشطين السياسيين مع سجناء الحق العام. تبادل الخبرات أدى إلى تسليح الفقراء وتنظيم أنفسهم، فاستغنوا عن حماية الدولة وانتهاكاتها أيضا.

أحد فقراء روسينيا فتح لنا أبواب بيته، وكان كريما ومضيافا رغم قلة ذات اليد وألح أن يوجه من خلالي عناقا حارا إلى كل المغاربة.

في مسجد البرازيل في ساوباولو

الوجود العربي في البرازيل من قصص الاغتراب العربي المغمورة تقريبا في المشهد الإعلامي العربي خاصة أن كثافة ذلك الوجود وعراقته التاريخية تبدوان غير مسبوقتين في تجارب ذلك الاغتراب في دول وقارات أخرى. العرب اندمجوا هنا في كل مناحي الحياة من بائع الأكلات السريعة إلى صاحب المحطات التلفزيونية المتعددة ومن نزلاء السجون إلى أروقة صنع القرار في برازيليا مرورا بالغالبية الساحقة من المجالس البلدية المنتشرة في ولايات البرازيل الست والعشرين.

بين الفينة والأخرى تطالعك أسماء عربية وصور أصحابها بابتسامات السياسيين المستجدية على ملصقات الدعاية تطل من البنايات والحيطان بأسماء عربية قحة، وأخرى منقحة تحاول إقناع الناخبين بإيفادها إلى مختلف المجالس التشريعية المحلية، أو على مستوى الولاية بل حتى على المستوى الفدرالي. العرب هنا يقولون إن أحداث الحادي عشر من شتنبر التي أثرت سلبا على العرب في كل مواطن المهجر تقريبا لم تطلهم وأجمعوا على طيبة الشعب البرازيلي المحب للغرباء.

في مسجد البرازيل، أقدم مساجد القارة الذي أسسه مهاجران فلسطينيان عام 1929، تحس بعراقة الدين الإسلامي في هذه الأرض، كما تدل سحنات المصلين المختلفة على أن العرب رغم أعدادهم الكبيرة يشكلون أقلية أمام البرازيليين الذين يعتنقون الإسلام بأفواج كبيرة كما أكد لنا إمام المسجد. بعد الصلاة انتقل المصلون إلى قاعة فسيحة صفت عليها موائد الإفطار المجاني للمؤمنين أو الراغبين في توفير مصروف العشاء. سألت عن الوجود المغربي، فدلني أحد اللبنانيين على طاولة تحلق حولها عشرة شبان مغاربة جميعهم في مقتبل العمر. تبادلنا التحية بحرارة وبلهجة مغربية قحة استعصى فهمها على جيراننا الشرقيين. مغاربة ساوباولو كباقي العرب في البرازيل يميلون للاختصاص في التجارة.

في الطابق العلوي للمسجد نصبت طاولات أكثر أناقة وبأطعمة أكثر إغراء من الطابق المجاني الأسفل. هنا تجمع أكثر من خمسمائة مفطر، معظمهم من اللبنانيين حول مائدة إفطار جماعية مقابل خمسة وعشرين ريالا - حوالي مائة درهم - في جو حميم كانت فيه اللغة البرتغالية طاغية على العربية، وإن كان بعضهم يتكلم لغة الضاد بفصاحة مثيرة للإعجاب.

من أولئك الشيخ صلاح الدين سليمان البرازيلي من أصل لبناني في العقد الثالث من العمر تعلم اللغة العربية في السعودية، ويتحدثها بطريقة أقرب إلى لغة المسلسلات الرمضانية. الشيخ صلاح عاتب من خلالي الإعلام العربي المتجاهل لهذه الجالية الضخمة، ونصحني بضرورة زيارة المدرسة الإسلامية والمستشفى الإسلامي في ساوباولو. أعربت عن الرغبة في زيارة المدرسة لكنني تساءلت مع نفسي طبعا كيف يكون المستشفى إسلاميا ؟ أليست الحقن والمباضع والأسرة رمزا عالميا للرغبة في التخلص من الآلام جزئيا أو كليا ؟

الشيخ صلاح أخبرني حينما عرف أنني مغربي أنه ينحدر مع الكثيرين من أقربائه وأصدقائه الموجودين في حفل الإفطار من قرية لبنانية تقع في البقاع أسسها السلطان المغربي يعقوب المنصور الموحدي والمدفون في القرية نفسها التي ما زالت تحمل اسمه. صلاح الدين تحدث عن لهجة أهل القرية التي تميل إلى اللهجة المغربية بسبب الملك الراحل الذي كانت له معجزات وبركات في زمانه ما زالت تدفع مريديه لزيارة قبره حتى الآن معظمهم من المغاربة كما أكد الراوي.

بعد الإفطار استقبلتنا أمطار طوفانية جعلت رؤية السيارة على الرغم من قربها عملية شبة مستحيلة. الأمطار كانت تساقطات ربيعية لأن للبرازيل ساعته البيولوجية الخاصة به. غزارة الأمطار تبشر بموسم حصاد وفير.. في شهر يناير.

كراهية الأغنياء أقوى من حب الفقراء

يوم الاقتراع استجاب سائقنا البرازيلي لرغبتنا في الإطلال على مدن الصفيح البرازيلية التي تعد خزانا للدعم الشعبي للرئيس لولا الذي يسعى للاحتفاظ بمنصبه لأربع سنوات أخرى.

الصحف البرازيلية طلعت اليوم بصور ضخمة على صفحاتها الأولى للمبالغ المالية التي تزعم المعارضة أن مؤيدي لولا دفعوها للحصول على معلومات قذرة عن خصومه السياسيين. في المقر الرئيسي للحملة الانتخابية للرئيس كانت أعصاب المؤيدين والمتطوعين متوترة بشكل واضح. بالإضافة للفضائح عزت إحدى موظفات المركز الخوف من النتيجة إلى رفض الرئيس لولا الظهور مع خصمه ألكيمن في مناظرة تلفزيونية. القرار أظهر السيد لولا وكأنه خائف أو لديه شيء ما يحاول إخفاءه. زميلتها التي كانت جالسة بجوارنا اعترضت على صديقتها مؤكدة أن لولا اتخذ الموقف الملائم لأن الصحافة هنا لا تحب الرئيس.

ساوباولو مدينة ضخمة للغاية وتشكل المحرك الاقتصادي للبرازيل، يسكنها الكثير من أغنياء البلد ولا تعول عليها كثيرا حملة الرئيس لولا. لكن في ساوباولو، ثاني أكبر مدن أمريكا اللاتينية بعد مكسيكو سيتي، «مدن» متعددة لفقراء المدينة الذي يعيشون على هامش العولمة وفوائدها. الطفرة الاقتصادية بحاجة إلى خدماتهم لتكنيس الشوارع وقطف المانغو والموز لكنها تلفظهم من شوارعها الراقية.

سيارة التاكسي قطعت شوارع تكاد لا تنتهي في المدينة المترامية الأطراف على ضفاف أكثر الأنهار تلوثا في العالم، إلى أن وصلنا إلى منزل السائق نفسه الذي يسكن أحد الأحياء الهامشية التي تبدو مترامية تغطي الأفق بكامله ببنايات من طابقين أو ثلاث طوابق بالآجر الأحمر.

بيت السائق كان أفضل بكثير من البيوت حوله، ربما فسر ذلك معارضته الشديدة للرئيس لولا. استوقفتني المفارقة لكون الرئيس لولا يفقد مؤيدين كلما انتقلوا طبقيا في اتجاه الأعلى نتيجة مساعداته الاجتماعية المباشرة. استقبلتنا الأسرة بحفاوة بالغة خالصة يشترك فيها كل فقراء العالم تقريبا باختلاف الديانات واللغات. صعدنا للسطح لالتقاط صور بانورامية لمظاهر البؤس الجماعي في أم مدن الصفيح في العالم. عدد سكان مدن الصفيح يفوق هنا سكان دول بأكملها.

على السطح أخذنا صورة تذكارية للأسرة بكامل أعضائها المبتسمين بما في ذلك كلبها بيتهوفن.

في مدرسة الحي حضرنا عملية تصويت السائق والكثير من جيرانه في إيقاع فوضوي منظم. المدرسة مهترئة كسكان الحي غطت جميع حيطانها رسوم وشعارات مختلفة بعضها لا يليق بمدرسة ابتدائية. التصويت هنا إجباري على كل مواطن يتراوح عمره بين التاسعة عشرة والسبعين، وكل من تخلف بدون إذن مسبق يدفع غرامة وقد يجد صعوبة في استصدار وثائق إدارية كالجواز وغيره. فكرت أن العالم قد يكون مكانا مختلفا وربما أفضل لو طبق القانون نفسه في الولايات المتحدة حيث عزف نصف الناخبين عن صناديق الاقتراع منذ أجيال متعددة، وربما كان من المستحيل أن يصبح شخص بقدرات جورج بوش المحدودة أقوى موظف في أقوى دولة في العالم.

عمليات عدّ الأصوات سريعة هنا أيضا لأن البرازيل أول دولة في العالم تعتمد الاقتراع الإلكتروني بآلة سهلة الاستعمال حتى على فقراء الناخبين وأمّييهم.

هرعنا للمقر الرئيسي لحملة الرئيس لولا حيث كان قد تعهد لنا أحد مساعديه العرب أنه قد يعطينا مقابلة في حال نجاحه اليوم. كان الرئيس بحاجة إلى خمسين في المائة زائد صوت واحد ليضمن الفوز، وتجنب جولة انتخابية ثانية، لكن قراءة سريعة للوجوه في المقر الحزبي اليساري كانت تحمل على الاعتقاد بأن الأمل يتضاءل مع ازدياد ظلام الليل حلكة. الأمل تبخر في إجراء المقابلة بعدما تأكد أن الرئيس رحل إلى العاصمة برازيليا ليراقب النتائج المخيبة لآماله بعد أن اقترب كثيرا من نسبة الخمسين في المائة إلا أنه لم يحققها وعليه الانتظار حتى التاسع والعشرين من الشهر.

من واشنطن إلى شيكاغو

(مشاهد وتأملات)

إذا لم يكن الفيل كافيا

تمضي الحكاية التي سمعتها صغيرا أن أحد الأمراء المدللين كان يملك فيلا ضخما أكثر دلالا يطلقه الأمير يوميا للعبث بأرزاق الله وأجسادهم لكن الرعية الخائفة كانت تبالغ في إرضاء الفيل المعتوه خوفا من غضب الأمير رغم ما يخلفه الفيل المدلل من دمار.

تواصل الحكاية والعهدة على الرواة - الذين رحل جميعهم عن هذه الدار - أن صبر الرعية نفذ في أحد الأيام، فأقاموا المهرجانات الخطابية والوقفات الاحتجاجية، وقرروا أن يرفعوا شكواهم إلى الأمير شخصيا عله يرحمهم من عربدة الفيل الشرير. اختار القوم أشجعهم وأفصحهم لنقل مظالمهم إلى الأمير إلا أنه فقد كل شجاعته وفصاحته في البلاط، وحينما سأله الأمير بلهجة صارمة حول مشكلته مع الفيل رد زعيم القوم «لا لا يا سيدي جئت فقط لأخبركم بمدى فرحتنا بالفيل وتقترح الرعية على سموكم تزويجه حتى لا يشكو من الوحدة. فما كان من الأمير إلا الاستجابة لمطلب زعيم القوم وأمر مساعديه بأن يحضروا فيلة ترافق الفيل المضطرب عقليا في رحلات التدمير وزيادة خوف الرعية وخسارتها. تصريح الأمير بأنه إذا كان الفيل غير كاف فزدهم الفيلة أصبح من ذلك اليوم تعبيرا تردده الألسن في المدينة المنكوبة.

لا اعرف لماذا تذكرت هذه الحكاية بعد تصريحات البابا بينيديكت المتهجمة على الإسلام ونبيه ورسالته في اقتباس انتقائي من العصور الوسطى متجاهلا تزامن الفترة مع الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في أحلك فترة دموية تقودها الكنيسة الكاثوليكية ضد المسلمين بقيادة أسلاف بينيديكت. البابا كان بمثابة الفيلة التي لم نكن بحاجة إليها من الغرب بعد أن سلط علينا هذه الأيام جورج بوش وجوقة غير مقدسة من رجال الدين اليمينيين المتطرفين والمحافظين الجدد والمحافظين المعتوهين على شبكة الإنترنت وأمواج الإذاعات الأمريكية.

الأغلبية الساحقة من أبطال الكراهية الأمريكيين تجهل أي شيء ذي معنى عن الإسلام وتلقت درسها الأول عن ذلك الدين يوم الحادي عشر من شتنبر.

لكن وضع البابا مختلف تماما، فالرجل لا يتزعم الكنيسة الكاثوليكية ذات المليار أو أكثر من المؤمنين، بل يدعي المعرفة الأكاديمية بالأديان وبالحساسية التاريخية للعلاقة بين كنيسته والإسلام.

أمر آخر يجعل تصريحات البابا أكثر خطورة كونها لم تأت نتيجة زلة لسان أو «سوء تفسير» كما ذهب إلى ذلك الفاتيكان إذ يبدو أن زعيم الكنيسة الكاثوليكية يحمل تلك المواقف العدائية قبل أن يتربع على عرش الكاثوليك بسنوات.

الكاردينال ريتزينغر كان يعرض دائما انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي ليس لأن اقتصادها متخلف عن نظيره الأوروبي أو أن أوضاع حقوق الإنسان فيها لا ترقى للمعايير الأوروبية لكن لأن دينها يختلف مع التقاليد المسيحية للقارة العجوز.

بعيد الحادي عشر من شتنبر أبلغ الكاردينال ريتزينغر إذاعة الفاتيكان أن «تاريخ الإسلام ينزع للعنف» وكأن الحروب الدينية التي أحرقت الأخضر واليابس في القارة الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقعت في الحجاز.

وإذا كان ذلك الفيل غير كاف فإن البابا استقبل الصحفية الإيطالية الشهيرة أوريانا فالاتشي التي توفيت قبل بضعة أيام الزيارة فسرت على نطاق واسع بأنها كانت مكافأة للصحفية الإيطالية على عدائها للإسلام والمسلمين. فالاتشي التي كانت بطلة في عيون الكثيرين ومن بينهم كاتب هذه السطور بمقابلاتها الشهيرة وأسئلتها اللاذعة تحولت في أواخر أيامها إلى واحدة من أكثر أعداء الإسلام والمسلمين في إيطاليا واصفة إياهم بأسوأ النعوت، وأعربت عن اختلافها مع الرئيس بوش لأنه يقول أحيانا إن الإسلام دين سلام. فالاتشي كانت ملحدة حتى رمقها الأخير لكن ذلك لم يمنع قداسته من استقبالها ومباركتها.

بين البابا وبوش وبن لادن يبدو أن العالم أصبح هشا كمتجر ضيق للخزف مليء بالفيلة غير المدربة.

شافيز ومشرف وتشومسكي

القمة الدبلوماسية هذا العام في مقر الأمم المتحدة شهدت لحظات غير دبلوماسية وظهر جليا للأمريكيين مستوى الكراهية التي يكنها معظم سكان العالم لقيادتهم غير الرشيدة.

مؤيدو الحكومة المحافظة الذين يفضلون رؤية العالم بمنظار الخير والشر صدموا من استعارة الرئيس الفنزويلي صفحة من كتابهم المقدس بوصفه الرئيس الأمريكي بالشيطان. الصدمة لم تقتصر على تلك الصفة فحسب بل من ردود فعل ممثلي العالم في القاعة الذين ضحكوا بطريقة تنم عن التأييد وكانت صدمة الأمريكيين أكثر حينما لم يقف دبلوماسي واحد من ممثلي أكثر من مائة وتسعين دولة للدفاع عنهم.

تشافيز فعل شيئا آخر غير مسبوق في تاريخ الخطب المملة عادة في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة حينما دعا العالم والأمريكيين تحديدا لقراءة أحدث كتب العالم اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي أكثر المفكرين الأمريكيين انتقادا لحكومة بلاده.

البروفسور تشومسكي الذي تقاعد من التدريس من معهد ماساسوتش للتكنولوجيا يعد بطلا في نظر اليسار الأمريكي إلا أن كتبه التي تميل للتعقيد على القارئ العادي لم تلق الرواج الذي يستحقه كاتب وعالم من مرتبة السيد تشومسكي. لكن ذلك تغير بين ليلة وضحاها حينما تلقى كتابه «السيطرة أو البقاء» دعاية مجانية من الزعيم الفنزويلي. مبيعات الكتاب الذي كان مصنفا على موقع أمازون الإلكتروني للكتب في المرتبة المائة والستين ألف ارتفعت بطريقة صاروخية للمراتب الأولى.

الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد الذي كان البطل «الشرير» الآخر في أروقة الأمم المتحدة شن هجوما خاصا به على شاشات التلفزيون وبدا منطقيا ومتفهما ومحبا لكل شعوب العالم بما في ذلك اليهود إن غادروا فلسطين. ولولا عائق اللغة التي لم تسعفه في مخاطبة

الأمريكيين مباشرة دون مترجم لكان قد قلب الطاولة من تحت متهميه الذين نجحوا في تصويره كهتلر جديد.

لكن شافيز كان بطل هذه الدورة بدون منازع ولم يكتف بخطبته النارية أمام دبلوماسيي العالم بل انتقل إلى أحد أحياء نيويورك الفقيرة ليعد فقراء الأمريكيين بالمزيد من الوقود والغاز بأسعار تفضيلية إمعانا في إحراج واشنطن. لكن شافيز الذي دفع الأمريكيين أو فئة عريضة منهم لإعادة اكتشاف نعوم تشومسكي أعرب في مؤتمر صحفي عن شعوره بندم كبير لأنه لم يلتق بالمفكر الأمريكي الكبير قبل وفاته. نعوم تشومسكي البالغ من العمر سبعة وسبعين عاما ما زال حيا وربما يرزق أكثر هذه الأيام بعد ارتفاع مبيعات كتبه أعرب من مدينة بوسطن عن استعداده للقاء الزعيم اليساري اللاتيني ليثبت بالدليل المادي أنه لم يغادر هذه الدنيا بعد.

الرئيس الباكستاني برويز مشرف الذي وضع بيضه السياسي كله في سلة البيت الأبيض ذهب في الترويج الدعائي للكتب شوطا غير مسبوق خلال زيارته الأخيرة للعاصمة الأمريكية قادما من نيويورك. الجنرال الباكستاني كان قد أبلغ محطة سي بي إيس أن مدير الوكالة الباكستانية للمخابرات أبلغه بعيد الحادي عشر من شتنبر أنه تلقى رسالة صارمة من نائب وزير الخارجية آنذاك ريتشارد أرميطاج حذره فيها من أن واشنطن ستقصف باكستان إلى أن تعود للعصر الحجري إن لم تتعاون مع جهود الإطاحة بطالبان في أفغانستان. بوش بدوره كان قد أدلى بتصريح آخر قبل الاجتماع أشار فيه إلى أنه لن يتردد في قصف بن لادن داخل الأراضي الباكستانية إن تأكدت الاستخبارات من مكان وجوده دون العودة إلى إسلام أباد لأخذ موافقتها. وكان من الطبيعي أن تسيطر التهديدات القديمة والاستعداد الجديد لانتهاك سيادة باكستان على المؤتمر الصحفي الذي عقده الرجلان. لكن الجنرال الباكستاني رفض الإجابة على السؤال بشأن التهديد القديم لأن عقدا يجمعه مع الناشر لمذكراته يمنعه من الإدلاء بالمزيد من التفاصيل.

تلك الدعاية المجانية وإن كانت على حساب سيادة البلد وعضويته في القرن الحادي والعشرين قفزت بالمبيعات على الإنترنت للمرتبة الأولى مزاحمة كتاب تشومسكي.

إنهم يكرهوننا أكثر

أجمعت أجهزة الاستخبارات الأمريكية - ست عشرة وكالة في المجموع - على أن العراق تحول إلى أكبر مسرح لتجنيد أعداء أمريكا من الأصوليين الجهاديين في العراق وفي مختلف أنحاء العالم. التقرير - القنبلة الذي جاء في حوالي ثلاثين صفحة وسرب بشكل متزامن لكل من الواشنطن بوست والنيويورك تايمز، قد يأتي للقراء كتحصيل حاصل وربما لمعظم سكان العالم ونصف الأمريكيين على الأقل، ولكن بالنسبة للبيت الأبيض وقواعده التقليدية، فقد يشكل صدمة هذا إذا صدقوا محتوياته.

التقييم المخابراتي جاء أيضا قبل ستة أسابيع من الانتخابات التشريعية التي يريدوها الديمقراطيون حول العراق لإظهار إخفاقات البيت الأبيض، ويريدوها الجمهوريون حول الإرهاب لأن الرأي العام يثق فيهم أكثر حينما يتعلق الأمر بمواجهة القاعدة وأذنابها.

- التقرير جمع الموضوعين في ثلاثين صفحة، وصفع بهما البيت الأبيض المصرّ على أن العراق يشكل جبهة متقدمة للحرب على الإرهاب، وأن أمريكا تحقق انتصارا على تلك الجبهة التي يعتبرها «حربا من أجل الحرية».

الخلاصات القاتمة للتقرير تعد بمستقبل قريب أكثر دموية وعنفا مما رأيناه في السنوات القليلة الماضية بفضل هدية جورج بوش للمتطرفين في مختلف أنحاء العالم. بعض الدول العربية التي عانت من عودة الأفغان العرب كمقاتلين مدربين بدون قضية، ستعاني أكثر بعد عودة مجاهدي بلاد الرافدين هذه المرة أكثر تدريبا وحنكة، ولا تنقصهم القضايا من أبو غريب إلى غوانتانامو إلى دعم أمريكا لإسرائيل والأنظمة العربية الدكتاتورية.

المتطرفون الجدد لا يقلون تصميما عن المحافظين الجدد، وإن كانوا أكثر خيالا من أعدائهم الأمريكيين، ولجأوا حسب التقرير إلى الإنترنت حيث أقاموا ما لا يقل عن خمسة آلاف «موقع متطرف» يتبادلون من خلالها الأفكار والخطط والإدانة لأمريكا لاستهدافها دار الإسلام.

البيت الأبيض وكما كان متوقعا اتهم الصحف الأمريكية بالتركيز على النصف الفارغ من الكأس، وكان ما يجري في العراق حاليا فيه شيء يبعث على الارتياح.

التقرير لم يبرز التوتر القائم هذه الأيام بين حكومة الرئيس بوش وبعض وسائل الإعلام فحسب، بل أظهر أيضا جوانب من العلاقة الأكثر توترا بين الحكومة الجمهورية وخلايا التجسس الأمريكية منذ غزو العراق. التحقيقات المختلفة التي أجريت حول الفترة السابقة للحرب أكدت جميعها أن البيت الأبيض عمل على تسييس المعلومة الاستخباراتية والضغط على وكالات الاستخبارات لدعم قرار الاجتياح ويبدو أن تلك الأجهزة تتعرض للضغوط نفسها بهدف تجميل الأوضاع في العراق والرفع من مخاطر إيران.

السناتور الديمقراطي المخضرم إدوارد كينيدي اعتبر التقرير آخر مسمار في نعش الأعذار المختلقة للرئيس بوش حول الحرب على العراق لكن الرئيس الذي يفاخر ويفاخر مريدوه بأنه عنيد قد يجد بمساعدة آلته الدعائية الفعالة وسيلة لتأويل الخلاصات المدمرة لجواسيس الحكومة الفدرالية.

مجلس الاستخبارات القومية الذي أعد التقرير والذي يعد ثمرة جميع أجهزة الاستخبارات الأمريكية التي تنفق أكثر من أربعين مليار دولار سنويا كان قد أعد تقريرا عن العراق في خريف عام ألفين جاء فيه «إن العراق واصل برامجه بشأن أسلحة الدمار الشامل ويملك مخزونا من الأسلحة البيولوجية والكيماوية، ومن المحتمل أن يملك أسلحة نووية خلال السنوات العشر القادمة». خلاصات تبين فيما بعد أنها غير صحيحة، وقد توفر للبيت الأبيض مخرجا منطقيا للطعن في مصداقية جواسيس الحكومة لكن هل يستطيع الرئيس بوش أن يجادل بتلك الحجج التي تطعن في مبررات غزوه في المقام الأول؟

بيل كلينتون والغضبة الكبرى

أظهر الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون غضبا غير مسبوق خلال مقابلة تلفزيونية مع محطة فوكس اليمينية المتطرفة التي ترفع شعار العدل والتوازن ولا تتسم أخبارها بأي عدل أو توازن.

لكن السؤال عن إخفاق حكومة الرئيس السابق في القبض أو قتل زعيم القاعدة أسامة بن لادن كان إلى حد ما مشروعا لو كانت المحطة سيئة الذكر وصحفيوها يطرحون السؤال نفسه على الرئيس بوش وحكومته عما فعلوا أو لم يفعلوه خلال الثمانية أشهر التي سبقت أحداث الحادي عشر من شتنبر. الحادث الذي تحول إلى موضوع إعلامي غطى على ما عداه مما توجهه أمريكا، والعالم أبرز بشكل مثير الانقسام الكبير في المشهد الإعلامي وفي المجتمع الأمريكي بين جناحين منفصلين وصلت العلاقة بينهما إلى مستويات القطيعة والكراهية المتبادلة.

المحافظون الجمهوريون دأبوا منذ فترة طويلة على اتهام وسائل الإعلام بالتحيز الليبرالي ضدهم، واستخدموا تلك التهمة التي لا تستند إلى دليل لنيل تعاطف وأصوات الأمريكيين البعيدين عن المراكز الإعلامية الكبرى في واشنطن ونيويورك.

الشعور بالغبن الذي كان ريتشارد نيكسون قد عبر عنه بعد هزيمته في إحدى الحملات الانتخابية في الستينات لمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا مخاطبا الصحفيين : «لن تجدوا بعد اليوم من تصفعونه»، أوجد لدى المحافظين مخرجا للانتقام عن طريق محطات الإذاعة التي أصبحت تحت سيطرة شبه مطلقة لمذيعين محافظين لا موضوع لهم طوال النهار سوى تمجيد المحافظين ولعن الليبراليين والشكوى من تحيز وسائل الإعلام.

في التسعينات ظهرت محطة فوكس التلفزيونية لتغلق الدائرة مع مجموعة من المجلات الأسبوعية المحافظة التي لم تعمق الفرقة بين الأمريكيين فحسب، بل أصبحت لها قدرة خارقة على تأويل أي خبر كيفما كان لصالح أصدقائها وسلبيا إزاء أعدائها.

فبالنسبة لوسائل الإعلام هذه لا يمكن إطلاقا أن يفعل بيل كلينتون شيئا إيجابيا مهما فعلى الرغم أن رئاسته تميزت بفترة غير مسبوقة من الازدهار الداخلي والسلام الخارجي ومحاولات جدية لإنهاء الصراع في الشرق الأوسط. أما بالنسبة لمحطة فوكس والنيويورك تايمز والواشنطن بوست فإن ثماني سنوات في البيت الأبيض كانت جميعها لممارسة الجنس مع المتدربات.

المحافظون في وسائل الإعلام - الذين ما زالوا يشتكون من عدم إنصاف الإعلام الليبرالي - يحاولون هذه الأيام إعادة كتابة التاريخ بشأن المخاطر التي تتهدد أمريكا، ويرون الحرب في العراق حربا من أجل الحرية، وأن بيل كلينتون كان مشغولا بمونيكا لوينسكي ونسي بن لادن.

هذه الزمرة نفسها اتهمت كلينتون عام 1998 حينما قصف أفغانستان بصواريخ كروز بالرغبة في تحويل الأنظار عن فضيحة لوينسكي والجهود الحثيثة في الكونغرس ذي الأغلبية الجمهورية لمحاكمته برلمانيا.

بعض المحللين فسروا الغضبة الكلينتونية الشديدة كمحاولة لحشد التأييد بين المرشحين الديمقراطيين ودفعهم للتحلي ببعض الجرأة في مواجهة طغيان اليمين على وسائل الإعلام والتصدي لمحاولات البيت الأبيض الناجحة حتى الآن لتصويرهم كجبناء في قضايا الأمن القومي.

وإذا كانت تلك بالفعل رغبة الرئيس الديمقراطي السابق، فإنه اختار أسوأ وقت ممكن لأن المقابلة المثيرة للجدل تزامنت مع تسريب التقرير الاستخباراتي الذي نسف كل حجج الرئيس بوش بشأن العراق، واستخلص أن الحرب جعلت أمريكا معرضة لأخطار أكثر مما كانت تواجهه قبل الغزو.

في معظم وسائل الإعلام الأمريكية الليبرالية منها والمحافظة، غضب الرئيس السابق كان «خبرا» أهم بكثير مما تواجهه أمريكا في العراق أو في أي مكان آخر من العالم.

أحمدي نجاد وموضة العداء الأمريكية

تعشق وسائل الإعلام الأمريكية منذ فترة طويلة تحديد عدو للبلاد والعباد، وتظهر قدرة فائقة في تصويره كالشيطان نازعة عنه أي قيم إنسانية قبل أن تتركه للآلة العسكرية للتخلص منه نهائيا، أو إلى أن يلفه النسيان وتنتقل تلك الوسائل لاختلاق عدو جديد بالسرعة نفسها التي تخلصت بها من العدو السابق.

القائمة السوداء لأعداء أمريكا الحقيقيين أو المختلفين طويلة بالفعل من زعماء ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي إلى فيديل كاسترو، إلى الرئيس الصربي سلوبودان ميلوزوفيتش، إلى الرئيس البنمي مانويل نورييغا.

الزعماء العرب حلوا ضيوفا على تلك القائمة من الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر إلى الزعيم الليبي معمر القذافي مرورا بالرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات والرئيس العراقي المخلوع صدام حسين.

الآن جاء دور الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد ليتربع على عرش القائمة بامتياز، وأصبح ضحية هجمة ممنهجة تبعث على التساؤل عما إذا كانت مدبرة من جهة ما كمطية للحرب مع إيران أو أن بعض الصحفيين الأمريكيين يزايدون على الإدارة في المبالغة في تصوير مخاطر متخيلة تشكلها إيران على الولايات المتحدة.

مجلة التايمز التي خصصت موضوع الغلاف للرئيس الإيراني مهدت له بعنوان يليق بأحدث ضيف على قائمة أعداء أمريكا حينما تحدثت عن «لقاء مع عقل خطير» مشيرة إلى أن قيادات سياسية وعسكرية في واشنطن بدأت تشعر أن المواجهة مع إيران ربما «وصلت إلى مرحلة اللاعودة».

المحلل الموضوعي لمشاكل أمريكا الحقيقية مع إيران قد لا يجد بالفعل ما يدعم حجج واشنطن، أو يبرر خطابها المتشنج تجاه الإيرانيين لأن كل الاتفاقات الدولية -حتى الآن على الأقل - تمنح طهران حق تطوير طاقة نووية لأغراض سلمية، لكن المتتبع للبرامج الإخبارية أو القارئ للصحف والأسبوعيات الأمريكية قد يعتقد أن طهران تشكل بالفعل خطرا وجوديا على الولايات المتحدة.

كان أحد المتتبعين قد شبه الصحفيين الأمريكيين بالعصافير الجالسين على سلك الكهرباء بمجرد أن يطير الأول في اتجاه معين يتبعه الآخرون إلى المكان نفسه الذي قصده الطائر الأول.

التشبيه ينطبق كثيرا على مثل هذه الحالات، إذ تتجاوز المنافسة الوصول إلى مصدر الخبر أو التحليل الموضوعي ولكن حول من سيثير المشاهدين أو القراء أكثر، ومن سينجح أكثر من غيره في تخويفهم من الخطر المحدق. الأمر يزداد سوءا في عصر المحطات الإخبارية التي يتعين عليها ملء أربع وعشرين ساعة بالكلام أكثر من الأخبار باستضافتها «خبراء» في قضايا التهديد الإيراني ممن لا يفرقون بين العرب والفرس أو الشيعة والسنة.

في إطار هذا السيل الجارف يصبح أحمدى نجاد مسؤولا عن دعم حماس وحزب الله ويملك القدرة على تنفيذ تهديده بمحو إسرائيل وداعم لأعداء أمريكا داخل العراق من سنة وشيعة.

العنصر الإسرائيلي قد يفسر إلى حد ما الهستيريا المسيطرة على وسائل الإعلام في أمريكا هذه الأيام تجاه إيران وأحمدي نجاد، لأن حرب لبنان الأخيرة أصابت الإسرائيليين بالذعر من إيران مسلحة وحليفة لحزب الله، كما أن الساسة الإسرائيليين منذ إسحاق رابين يعتبرون إيران عدوهم الحقيقي في الشرق الأوسط وحرصوا على «تنبيه» الأمريكيين سياسيين وإعلاميين للخطر الإيراني المحدق.

المخيف في الحملة الحالية أنها تشبه إلى حد بعيد حتى في الكلمات المستعملة وشكل الغرافيك على شاشات التلفزيون وتفاصيل الأخطار المحدقة ما شاهدناه في الفترة التي سبقت غزو العراق.

الانشقاق والأخلاق

قبل بضعة أيام انشق ثلاثة جمهوريين عن خط الرئيس والحزب على أسس أخلاقية فرضت الكثير من الإعجاب. المتمردون الثلاثة – على خلاف الرئيس ونائبه ووزيرهما في الدفاع – لهم ماض عسكري كبير.

كبيرهم جون وورنر كان وزيرا للبحرية ومحاربا قديما في الحرب العالمية الثانية وكوريا. أصغرهم لينزدي غرام عمل قاضيا عسكريا لسنوات قبل أن يتنقل إلى عالم السياسة أما أشهرهم فهو جون مكين الذي ينحدر من أسرة عسكرية عريقة كان أبوه أدميرالا في البحرية وخدم بدوره في فييتنام وأصبح أكثر المحاربين الأمريكيين شهرة بعد أن قضى خمس سنوات كاملة فيما كان يعرف بهانوي هيلتون كأسير حرب تعرض خلالها للكثير من التعذيب.

جادل الثلاثة بأن إعادة تفسير مواثيق جنيف التي تمنع التعذيب، وتوفر بعض الكرامة لأسرى الحرب ستؤذي أمريكا أكثر من إيذائها لأعدائها عمليا وأخلاقيا.

على المستوى العملي جادل المشرعون الثلاثة وبقدر غير قليل من الإقناع بأن إقدام أمريكا على التخلي عن واجباتها القانونية والتزاماتها الدولية سيعطي الضوء الأخضر للدول المعادية لأمريكا كإيران وكوريا الشمالية لكي تعيد تأويل تلك القوانين لمحاكمة الجنود الأمريكيين إذا وقعوا أسرى لديها. الحجة الأخلاقية كانت أكثر وقعا وأعمق تأثيرا لأنها جادلت ببساطة بأن أمريكا ستخسر نفسها إذا بدأت تتصرف كأعدائها.

الصحافة الأمريكية احتفلت كثيرا بالمنشقين الثلاثة بسبب الغياب شبه الكامل لأي نقاش مسؤول عن أي من القضايا التي تواجهها أمريكا أو تفرضها على العالم بسبب سيطرة الحزب الواحد على واشنطن واختزال المعارضة الخجولة للديمقراطيين في قضية الوصولية السياسية مما يفقد حججها المصداقية الأخلاقية أو التغطية الإعلامية.

الانشقاق كان كارثة على البيت الأبيض في مجالات العلاقات العامة في عام انتخابات تشريعية لأنه بدا وكأنه يرغب في تشريع التعذيب في وجه معارضة من داخل الحزب. القضية أفسدت أيضا صورة الحزب المتماسك.

لكن أبرز المنشقين الثلاثة أي السناتور جون مكين الأسير السابق في سجون فييتنام الذي وظف ماضيه المؤثر في الجدل الدائر يملك أيضا طموحا مستقبليا لخلافة الرئيس بوش إذا كان الأمريكيون يملكون القدرة على تمديد حكم الجمهوريين بعد رحيل جورج عن البيت الأبيض. جون مكين حاول عام ألفين وفشل في مجاراة آلة بوش الدعائية في حشد تأييد القواعد التقليدية للحزب الحانقة على كلينتون آنذاك والمتطلعة ليميني خال من الشوائب.

انشقاق مكين على بوش بدا وكأن هو وصفة سحرية لا تجعل السناتور الطموح يبدو نظيفا ومستقلا ومتميزا من الناحية الأخلاقية على سلوكات البيت الأبيض القذرة فحسب بل إن تلك المواقف تستقطب أيضا كاميرات التلفزيون التي يعشقها السياسيون في مثل هذه المواسم.

لكن حدث شيء لم يكن في الحسبان إذ تم الإعلان أن البيت الأبيض توصل إلى اتفاق مع المتمردين الجمهوريين في صفقة يبدو أن البيت الأبيض قد حصل فيها على كل ما يريد من استجوابات مخالفة للقانون الدولي وحرمان المعتقلين من حق تحدي اعتقالهم غير القانوني أمام المحاكم الفدرالية المدنية.

أين تبخرت المبادئ وحقوق الإنسان وصورة أمريكا في الخارج وإحساسها الداخلي بالتفوق الأخلاقي ؟

الجواب وإن لم يأت بطريقة مباشرة كان على الصفحة الأولى للواشنطن بوست التي توقعت أن يؤدي انشقاق مكين وتمرده إلى إغضاب القواعد التقليدية للحزب وهو الغضب الذي قد يؤثر على فرص فوزه بترشيح الحزب عام 2008.

الرئيس بوش لا يريد التعذيب بقدر رغبته في الظهور أنه الأقدر على التعامل مع الأشرار والمعارضة «الأخلاقية» تتراجع بسرعة أمام سطوة الوصولية السياسية.

صحيفة الغارديان البريطانية وفي خطوة لا تستطيع معظم الصحف الأمريكية مجاراته عنونت تقريرا عن الموضوع بالقول «بوش يتوصل إلى صفقة تسمح له بمواصلة الحرب بشكل قذر».

جهل أم تجاهل ؟

جاءتني الرسالة الإلكترونية من موظفة البيت الأبيض تدعوني للحضور مع المصور صباح الاثنين الباكر للمشاركة في تغطية حدث «غير معلن» مع الرجاء بالاحتفاظ بالسر إلى أن يتم الإعلان عنه رسميا. تكهنت منذ اللحظة الأولى أن الأمر يتعلق برسالة تعيسة يريد البيت الأبيض بكل جهد أن يوصلها إلى الشرق الأوسط بأي ثمن حتى لو كلف الأمر استدعائي «بطريقة سرية».

وحينما أمر الله بالصباح في ذلك اليوم الرمضاني تمخضت السرية عن قصة أتعس مما كنت متوقعا بعد أن اكتشفت أن الأمر يتعلق بوفد أمريكي من رجال الأعمال سيذهبون إلى لبنان للاستثمار في مشاريع إعادة الإعمار. دخلت مع اثنين من المراسلين العرب الذين حظوا بالدعوة «السرية» مع جيش من الصحفيين والمصورين وتقنيي الصوت لنحلق حول الرئيس الأمريكي وضيوفه من الدبلوماسيين ورجال الأعمال. وما لفت انتباهي هو عدم توجيه الدعوة «الوجيهة» لمراسل قناة الحرة رغم مداومة المسكين في البيت الأبيض طوال أيام الأسبوع ربما نتيجة الاقتناع التام بأن مشروع كسب العقول والقلوب قد فشل وربما يتعين النظر في كسب مشاعر أعضاء أخرى. لكن الاستغراب كان أكثر من الدعوة نفسها ما دامت المناسبة روتينية وأحمل كباقي الزملاء العرب الذين جاؤوا ذلك الصباح بطاقة الدخول إلى البيت الأبيض دون دعوة إذا كان الحدث الصحفي يستحق فلماذا الضجة إذن والسرية المبالغ فيها لحدث مفتوح لكل مهتم بالمشاريع الأمريكية في لبنان ؟

أعتقد أن مساعدي الرئيس للشؤون الإعلامية ربما اعتقدوا أن معرفة المشاهد والقارئ العربي بأن واشنطن تدعم جهود إعمار لبنان حتى لو تعلق الأمر بمشاريع تبغي الربح قد تساعد في كسب القلوب والعقول التي نجت من القنابل الأمريكية الذكية منها والغبية التي شحنتها

واشنطن لإسرائيل لتذبيح اللبنانيين مباشرة على شاشات التلفزيون. أو ربما ينسون في غمرة سماعهم لكلمة الرئيس الأمريكي غير الفصيحة في المستثمرين المحتملين تفاصيل الغطاء الدبلوماسي الذي وفرته واشنطن لإسرائيل في الأمم المتحدة حتى تتمكن الآلة العسكرية الإسرائيلية من «إنهاء المهمة»، وتتحول إسرائيل إلى مولدة للرضيع الجديد الذي تنتظره الآنسة رايس في الشرق الأوسط.

مثل هذه الحالات تحملني على التساؤل أحيانا عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الجهل أو التجاهل أو عدم القدرة على الإدراك الحقيقي لمشاعر الآخرين هل هو نتيجة سذاجة أم غباء أم مكر وخديعة أم حسن النية التي يولدها الجهل المطبق بالآخر.

هذا النوع من السلوك كان مسؤولا إلى حد ما عن الإخفاق الكارثي للأمريكيين في العراق لأن حتى أولئك الذين صدقوا بالفعل سمو الرسالة الأمريكية في العراق، وذهبوا إلى هناك لمساعدة العراقيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لأن المسؤولين الكبار الذين ذهبوا للعراق اختيروا - كما تم على ما يبدو مع الآنسة الشقراء في البيت الأبيض - على مدى إيمانهم بالرئيس وبإيديولوجيته وبفلسفته - إن وجدت وليس بالضرورة لكفاءتهم أو معرفتهم باللغة العربية أو تاريخ المنطقة.

من تلك القصص ما نقله مراسل الواشنطن بوست في كتاب له عن المنطقة الخضراء في بغداد التي استقبلت في أحد الأيام وزير الصحة الأمريكي تومي تومسون. الوزير الأمريكي زار أحد المستشفيات العسكرية الأمريكية في المنطقة التي يكاد يمنع على العراقيين جميعا دخولها وألقى خطبة عصماء عن الجهود الأمريكية لمساعدة العراق على إعادة بنياته من المستشفيات والمنشآت الصحية.

الحرب بين القنابل الذكية والكاميرا السريعة

فوجئ العسكريون الأمريكيون من ردود فعل الصحفيين بشأن الأوضاع في العراق خلال جلسة من النقاش الحاد في أحد المتاحف العسكرية في مدينة شيكاغو شاركت فيها مؤخرا كممثل وحيد عن الصحافة غير الأمريكية في ندوة عن تأثير التكنولوجيا وسرعة نقل المعلومة الإخبارية في ساحات المعارك. لكن على خلاف ندوات شبيهة شاركت فيها في الماضي مع عسكريين أمريكيين بدا هذه المرة أن هناك قبولا مستترا على الأقل بأن المهمة الأمريكية قد فشلت أو على وشك الإفلاس بالفعل وأصبحت المؤسسة العسكرية أو بعضها على الأقل قانعة بدعم الشعب الأمريكي للجنود رغم تخليه عن دعم الحرب.

راجيف شاندراسيكاران مدير مكتب الواشنطن في بغداد خلال الشهور الأولى من الاحتلال قرأ جزءا من كتابه الجيد «الحياة الإمبريالية في مدينة الزمرد» الذي يصف بالتفصيل حياة الجنود الأمريكيين داخل المنطقة الخضراء حيث أسسوا مدينة أمريكية صغيرة داخل بغداد بمطاعمها السريعة وملاهيها يمنع على العراقيين دخولها حتى للعمل كطباخين لانعدام الثقة بين جنود الحرية والسكان المحليين الذين جاؤوا لتحريرهم. الصحفي الأمريكي أشار إلى جواب الجنرال كيميث المسؤول العسكري الأمريكي الأول في العراق حينما سأله أحد الصحفيين العراقيين لماذا تصر طائرات الهليكوبتر على التحليق على مستويات منخفضة للغاية تزعج معها السكان خاصة الأطفال. الجنرال الأمريكي نصح الصحفي العراقي بضرورة إبلاغ أطفال العراق أن ما يسمعونه هو صوت الحرية. الجنرال كيميث ضرب مثلا بزوجته المعلمة في إحدى المدارس الابتدائية القريبة على ما يبدو من قاعدة جوية في الولايات المتحدة وتنصح تلاميذ الفصل كلما سمعوا هدير محركات الطائرات العسكرية يعرقل سير الدرس «اسمعوا أيها الأطفال إنكم تسمعون هدير الحرية».

هذا الاستخفاف بعقول العراقيين كان واضحا من صدمة أحد الجنرالات حينما أجمع الصحفيون على إدانة لجوء البنتاغون إلى زرع «مقالات صحفية» كتبها جنود أمريكيون على لسان عراقيين في الصحف العراقية في إطار «الحرب الإعلامية» التي لا يبدو أنها أفضل حالا من الحرب الأخرى. أبلغت الجنرال المشدوه أن العملية لا تفتقد للشرف فحسب بل تعتبر العراقيين أغبياء لأنها تعطي الجنود صلاحية اختيار ما يتعين على العراقيين قراءته من أخبار وتعليقات.

بالنسبة للتكنولوجيا والإعلام أعربت عن القلق من عدم إدراك بعض الساسة الأمريكيين بمن فيهم الرئيس نفسه أن أي كلمات يتفوهون بها قصد التقرب من بعض الجهات المتطرفة محليا ولأسباب انتخابية بحتة تجد طريقها خلال ثوان قليلة إلى بقية أنحاء العالم حيث لا تؤدي إلى تأجيج المشاعر ضد أمريكا فحسب بل تساعد المتطرفين على تجنيد المزيد المقاتلين.

مراسل الواشنطن بوست أقر أيضا بأن التغطية الصحفية الأمريكية للعراق أصبحت بشكل متزايد تفتقد للدقة والموضوعية لأن الصحفيين الأمريكيين في بغداد نادرا ما يغادرون فنادقهم بسبب الأوضاع الأمنية، ويعتمدون بشكل أساسي على «زملائهم» العراقيين الذين غالبا ما ينتمون إما للطائفة الشيعية أو السنية ومن الصعب إن لم يكن مستحيلا أن تجد بينهم «مراقبا محاديا» للقتل والدمار اليومي الذي يعصف بطائفته قبل بلده.

سألني جنرال من القوات الخاصة عما يتعين على أمريكا فعله لكسب الحرب الإعلامية ما دمت أعارض بشدة زرع تقارير ومقالات مختلفة في الصحافة العراقية. قلت للجنرال الذي يبدو مؤمنا بنبل المهمة الأمريكية في العراق يؤسفني أن أكون من يحمل لك الأخبار السيئة، ولكنني أعتقد أن تلك الغاية أصبحت أكثر من مستحيلة وأقصى ما تستطيعون التطلع إليه الآن إعلاميا على الأقل هو تدبير الأزمة وتجنب إذكاء المشاعر ضدكم أكثر كلما حدث قصف للمدنيين أو عمليات اغتصاب أو تعذيب لأنكم لا تستطيعون إقناع العرب والمسلمين أن قصفهم بأحدث القنابل ممارسة يتعينون قبولها أو الاعتراف بالجميل لنتائجها.

الحرب بين الرسالة وحاملها

من المفارقات التي كانت واضحة في ندوة شيكاغو والندوات الشبيهة التي تعقدها مختلف أسلحة الجيش أو زعامة البنتاغون المدنية مع الصحفيين في محاولة لفهم كل طرف لمنطق الآخر هي أن الولايات المتحدة هي أولى الإمبراطوريات في التاريخ الإنساني التي تريد بسط هيمنتها على العالم وتريد في الوقت ذاته من ذلك العالم أن يحبها ويعشق سياساتها. المؤسسة العسكرية التي لا تمارس السياسة لأسباب تاريخية ودستورية وجدت نفسها إلى جانب ممارسة القتل كما هو مطلوب منها «مهنيا» تمارس أيضا جزءا من الدبلوماسية العامة.

أجد كبار الضباط أعرب عن بعض مشاعر الإحباط لأن البنتاغون لم يتحرك بالسرعة الكافية لإقناع المؤسسات الإعلامية الكبرى بالبقاء مدة أطول في باكستان بعد الزلزال الذي ضرب البلاد لإظهار الجانب الإنساني المشرق للجيش الأمريكي كما حصل في أندونيسيا بعد كارثة تسونامي. استطلاعات الرأي العام كانت قد أشارت إلى ارتفاع نسبة النظرة الايجابية تجاه الولايات المتحدة في البلدين بعد انتشار صور الجنود وهم يمدون قارورات المياه للمنكوبين بدل إنزالهم النكبة على المسلمين في بقاع أخرى. قد يكون صحيحا إلى حد ما أن مؤسسة ضخمة بمثل حجم البنتاغون بملايين الموظفين ومئات الملايير من الدولارات التحرك إعلاميا بنفس سرعة أعدائها ولكنها لا تستطيع التحرك أيضا بنفس السرعة السلبية لقادتها من السياسيين سواء في مقر البنتاغون نفسه أو في البيت الأبيض. اتفقت مع الضابط الأمريكي بأن تلك الصور الايجابية من مسارح الكوارث في أندونيسيا وباكستان كانت مؤثرة بالفعل ولكنها انمحت بسرعة بمجرد ما وقف الرئيس بوش لأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي مع بداية الهجوم الوحشي لإسرائيل على المدنيين اللبنانيين، وعارض وقف إطلاق النار. صور جثث الأطفال المختلطة أشلاؤهم ببقايا بيوتهم أغرقت صور المساعدات الإنسانية في كثير من الدم والحقد والكراهية.

في خطاب له مؤخرا أمام جمعية لقدماء المحاربين اشتكى وزير الدفاع رامسفليد من تشكيل الإرهابيين «لجانا للصحافة» للتأثير على وسائل الإعلام «ما يضرني أكثر» يضيف وزير الدفاع هو «مستوى الذكاء الذي يتمتع به العدو وقدرته على التأثير على وسائل الإعلام في هذا البلد.. لديهم القدرة على الكذب بدون عقاب».

بعض جوانب النقاش في شيكاغو أكد أن الوزير الأمريكي إما يعاني من طلاق مفجع مع الحقيقة، أو أنه يعبر في الحقيقة عن إحباطه من إخفاق كل محاولات الكذب والتضليل الإعلامي التي قامت بها الحكومة الأمريكية ووزارته على وشك التحديد لبيع بضاعة فاسدة. العديد من التقارير والكتب أشارت إلى ملايين الدولارات التي أنفقت على شركات خاصة لتضليل الإعلام في العراق والأمريكي في الولايات المتحدة بتأجير «محللين» يطلعون على شاشات التلفزيون الأمريكية للدفاع عن الحكومة كخبراء محايدين بينما هم في الحقيقة أجراء لدى الحكومة أو بث تقارير «صحفية» في بعض المحطات التلفزيونية المحلية لكنها في مصورة ومعدة من طرف وزارات مختلفة دون إبلاغ المشاهدين الأمريكيين بحقيقة مصدرها.

وزارة الدفاع ذهبت إلى أبعد من ذلك بفتحها محطة تلفزيونية خاصة بالعسكريين تبث تقارير ميدانية من مختلف أنحاء العالم هدفها الرسمي هو «التخاطب بين الجنود». العسكريون الحاضرون في الندوة استغربوا من الرفض العنيف الذي أبداه الصحفيون من إقدام الوزارة على بث أخبار يقرأها عسكريون في وقت يمنع فيه القانون الأمريكي الحكومة من «التأثير على الأمريكيين عن طريق الدعاية» وهو القانون نفسه الذي يمنع بث إذاعة سوا وقبلها إذاعة صوت أمريكا أو بث تلفزيون الحرة وكل أجهزة البث الموروثة عن الحرب الباردة داخل التراب الأمريكي.

أحد الصحفيين تساءل عما إذا كان ذلك قد يدفع البيت الأبيض لإنشاء قناة خاصة به لوزارة الأمن الداخلي لبث أخبار يقرأها رجال الشرطة والمخابرات على غرار زملائهم العسكريين في قناة البنتاغون.

واشنطن مدينة الحزب الواحد

كان الرئيس الديمقراطي الأسبق هاري ترومان قد ركز في حملة إعادة انتخابه عام 1948 على شعار واحد ضد الكونغرس واصفا إياه «الكونغرس الذي لم يفعل شيئا»، الشعار لم يساعد الرئيس على الفوز بالانتخابات فحسب بل ساعد أيضا على سلب الجمهوريين من أغلبيتهم في المجلسين التشريعيين، وهي أغلبية لم يتمكنوا من استعادتها إلا في خريف 1994 بقيادة نيوت غينغريتش.

في الأسبوع الأخير من عمل المشرعين قبل التفرغ للحملات الانتخابية شهد الكونغرس- الذي لم يفعل شيئا يذكر خلال العامين الماضين وكان أسوأ حتى بالمقارنة مع كونغرس الأربعينات - شهد حملة محمومة من المصادقة على مجموعة من مشاريع القوانين تتعلق بمكافحة الإرهاب الهدف الرئيسي منها إن لم يكن الوحيد هو الفوز بالانتخابات.

اكبر «إنجاز» للكونغرس الجمهوري هو إعطاء الرئيس بوش ومؤسسة الرئاسة صلاحيات غير مسبوقة يجادل البعض بأنها غير دستورية في التنصت على الأمريكيين وحرمان معتقلي حرب أمريكا على الإرهاب من أي حقوق إنسانية في انتهاك واضح للقوانين الأمريكية ومواثيق جنيف الدولية، ومن المحتمل إن لم يكن من الأكيد أنها ستعمق العداء لأمريكا وتجعل حربها أكثر دموية ومفتوحة إلى الأبد.

كان أحد المعتقلين الأفغان الذي يقبع في غوانتانامو منذ حوالي خمس سنوات قد بعث ببطاقة بريدية إلى أهله بمجرد اعتقاله في باكستان يبلغهم فيها ويحثهم على عدم القلق عليه لأنه حسب تعبيره «في أيد آمنة لأنه وقع في أيدي الأمريكيين وليس في يد المخابرات الباكستانية»، لكن الطبيب الأفغاني الذي يؤكد محاموه وبشهادات مصورة مع من يعرفونه في باكستان وأفغانستان أنه لم يحمل سلاحا في حياته قط وقع في يد أمريكيين مختلفين عمن كان يتصورهم من قبل.

وإذا كانت خمس سنوات في غوانتانامو غير كافية، فإن المشرعين الجمهوريين «المتنورين»

أعطوا البيت الأبيض كل الصلاحيات لحرمان المعتقلين من حق اللجوء إلى المحاكم المدنية لتحدي أسباب اعتقالهم. أي أن الرئيس يمكن أن يعتقل أي شخص في أي مكان من العالم ويمنحه صفة «محارب غير شرعي»، ويرميه في غوانتانامو ويرمي المفتاح في بحر الكاريبي دون أن ينتهك القانون.

القانون الجديد يسمح للمحاكم العسكرية التي لا تختلف شكلا ومضمونا عن محاكم الأنظمة الدكتاتورية باستخدام أدلة واعترافات حصل عليها المحققون تحت التعذيب في سابقة تحرمها قوانين أمريكا والعالم. القانون الجديد يحافظ أيضا على سرية الأدلة، ويحرم المعتقل من الاطلاع على ما تملكه الحكومة الأمريكية ضده حتى لو كانت ادعاءات باطلة، وتحرمه من حق بسيط وأساسي في إثبات براءته خاصة إذا كان قد «بيع» للأمريكيين مقابل مكافأة مالية كما حصل مع معظم نزلاء غوانتانامو. القانون الجديد يمطط أيضا تعريف التعذيب لتصبح «التقنيات القاسية» تقنيات مشروعة، ويمنح عملاء وكالة الاستخبارات المركزية حصانة قانونية من المتابعات القانونية.

المشرعون الجمهوريون نقلوا مجلسهم من برلمان لا يفعل شيئا إلى برلمان غير مسؤول على حد تعبير افتتاحية لنيويورك تايمز.

المحكمة العليا الأمريكية نسفت في قرار شهير لها في يونيو الماضي معظم ما أقره الكونغرس مؤخرا مضفيا شرعية مشبوهة على سلوكات تحفظت عليها محكمة عليا يسيطر عليها قضاة محافظون. البيت الأبيض وجوقة المطبلين له في الكونغرس انتظروا حتى عشية الانتخابات لطرح واحد من أسوأ مشاريع القوانين يشهدها المجلس في التاريخ الأمريكي ليس لحماية أمريكا كما يدعون ولكن لإحراج الديمقراطيين وإرغامهم على التصويت ضده.

بعض الديمقراطيين ابتلعوا حبة السم بالفعل لأنهم يخافون من تصويرهم في حملات الدعاية الجمهورية أنهم ضعاف أمام أعداء أمريكا ويرفضون حماية الأمريكيين.

الطعون القانونية الأكيدة في القوانين الجديدة ستجد طريقها من جديد للمحكمة العليا، وقد تنسفها من جديد لكن بعد أن يكون الجمهوريون قد حافظوا على أغلبيتهم، أو حاولوا على الأقل وبعد أن يكون المعتقلون خاصة الأبرياء منهم قد قضوا سنوات إضافية في أقفاص مهينة ثمنا لظهور الرئيس بوش والجمهوريون معه على أنهم أشداء وقساة ضد أعداء أمريكا.

بوش وحملة التبشير الديمقراطية

في خطاب إعادة تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة قبل عامين ونصف تقريبا، ومنذ ذلك الحين لا يمل الرئيس الأمريكي بمناسبة وبغيرها من انتقاد أسلاف من الرؤساء بمن فيهم جورج بوش الأب لأنهم حسب تعبيره - على الأقل وليس حسب أفعاله - ارتكبوا خطأ فادحا لأنهم دعموا أنظمة دكتاتورية في العالم الإسلامي مقابل تعاون اقتصادي وأمني وشعور واهم بالاستقرار. لكن جورج الإبن واصل بالضبط تقليد أسلافه وربما زايد عليهم بزيادة التطرف بل مقاومة الدكتاتوريين لسياساته بما في ذلك دعواته «للإصلاح».

في أسبوع واحد استقبل الرئيس الأمريكي مرتين في البيت الأبيض الرئيس الباكستاني برويز مشرف معربا عن صداقته العميقة للجنرال الذي أسقط حكومة منتخبة ديمقراطيا، وذهبت وعوده بإجراء انتخابات كما ذهب وعود مضيفه الأمريكي بنشر ثقافة الحرية والديمقراطية في العالمين العربي والإسلامي. ما دام الجنرال يساعد في رفع عدد نزلاء غوانتانامو فلتذهب مبادئ الديمقراطية وصناديق الاقتراع إلى الجحيم.

في الأسبوع نفسه بسط الرئيس الأمريكي البساط الأحمر لرجل كازاخستان القوي نورسلطان نزرباييف الذي لم يفز في انتخابات رئاسية كرتونية في دجنبر الماضي سوى بواحد وتسعين في المائة من الأصوات، وبعد شهرين من ذلك تخلصت قوات الأمن من أبرز زعماء المعارضة بإطلاق النار عليه ببساطة لرفضه الانضمام إلى النسبة العالية من عشاق نزرباييف في جمهوريته السعيدة.

نتائج التحقيق الرسمية في اغتيال زمان بك نوركاديلوف أكدت أنه انتحر رغم تلقيه ثلاث رصاصات إحداها في الرأس.

نزربابيف - على عكس مشرف - حظي أيضا بكرم ضيافة عائلية بعد أن حل ضيفا على بوش الأب في مركب العائلة الارستقراطية في ولاية مين على الساحل الشمالي الشرقي.

الدفء المزدوج ربما كانت نتيجة التعاون المزدوج للضيف الكازاخستاني الذي لم يساعد في الحرب على الإرهاب فحسب، بل وضع أيضا ثروات بلاده النفطية - التي لا يملكها مشرف - في خدمة الشركات الغربية.

أحد ناشطي حقوق الإنسان في أذربيجان حدد أربعة أعداء لحقوق الإنسان في النفط والغاز والحرب على الإرهاب والاعتبارات الجيوسياسية قبل أن يضيف «ونملك الاعتبارات جميعها».

تلك الاعتبارات حملت البيت الأبيض لدرجة تجاهل اتهامات محققين فيدراليين أمريكيين للسيد نزربابيف بتلقي حوالي ثمانين مليون دولار كرشوة في صفقة الأنابيب لكن رائحة النفط في خياشيم الرئيس الأمريكي ذي التجارب السابقة في ميدان الطاقة من الرغبة في نشر الديمقراطية حتى لو وفرت الدكتاتورية المناخ الملائم لترعرع التطرف والإرهاب.

سيناريو الديمقراطية على الطريقة الأمريكية في العالم العربي لا يختلف كثيرا عن باقي العالم الإسلامي إذ أدت الاعتبارات نفسها إلى تجاهل تزوير الانتخابات واعتقال المعارضين ومتابعة الصحفيين بل وتوفير واشنطن معتقلين لبعض العواصم العربية لتعذيبهم ما دام العرب الذين أفلسوا في كل شيء تقريبا يستطيعون التفاخر على الأقل بإتقان مهنة التعذيب.

أكثر الانتخابات العربية شفافية وديمقراطية بإقرار الرئيس الإمريكي الأسبق جيمي كارتر جرت في فلسطين لكن الفائزين لم يكونوا على المقاس فتم تجويع الشعب بأكمله عقابا له على ممارسة الديمقراطية، وزادت الفلسطينيين مشاكل لم يكونوا في حاجة إليها.

بوش كرر خطاب الحرية قبل ساعات قليلة من استضافة السيد نزربابيف ويبدو أن الرئيس الأمريكي يعتقد أن الحديث عن شيء ما يعني أنه حقيقة حتى لو لم يتحقق على الأرض من أسلحة صدام إلى حماية الأمريكيين إلى رسالة الديمقراطية والحرية.

إفلاس أمريكا في العراق : أكاديمية الشرطة نموذجا

المتتبع لإخفاقات الحكومة الأمريكية خلال السنوات الست الماضية يكاد لا يصدق أنه في أقوى دولة في العالم يعتقد رعاياها ورعايا معظم سكان المعمور أنها قادرة على كل شيء في أي مكان تشاء. لكن يبدو أن هناك نظاما للمحاسبة القانونية أو المالية ما زال نشيطا رغم الكوارث المتفاقمة وأدى نشاطه إلى فضح الإخفاقات المثيرة للجهاز التنفيذي مشروعا بعد الآخر.

أحدث تلك النماذج أكاديمية الشرطة في بغداد التي خصص لها مبلغ يفوق خمسة وسبعين مليونا من الدولارات وأشيد بها في البداية كنموذج بارز على الجهود الأمريكية لإعادة إعمار العراق بالإضافة إلى مهام حفظ الأمن المستعصي.

المحققون الأمريكيون الذين أنهوا للتوّ تحقيقاتهم الميدانية وصفوا المشروع بكلمة واحدة «الكارثة».

تفاصيل التقرير تستعصي على التصديق لكنها تنضاف إلى قائمة من «المشاريع» امتصت واحدا وعشرين مليار دولار ذهب الجزء الكبير منها في الرشوة والسرقة والفساد والمبلغ الباقي اختفى تماما حتى على المحققين الذين لم يعرفوا مصيره وفي جيوب من حط رحلته الأخيرة.

تقرير الأكاديمية التعيسة جاء في إحدى وعشرين صفحة ينافس تفاصيل المشاريع العربية إن لم يفقها في حيل السرقة والفساد، وإن كان الفارق الوحيد أن المشاريع العربية المفقودة تفتقد أيضا لمحققين مستقلين ليخبرونا على الأقل بمصير الأموال العامة حتى لو انتهى بها الأمر في الجيوب الخاصة.

الأكاديمية أصبحت كبعض القرى الفيتنامية أيام الحرب في عرف العسكريين الأمريكيين أي أن أفضل وسيلة لإنقاذها هو تدميرها أو جزء كبير منها على الأقل.

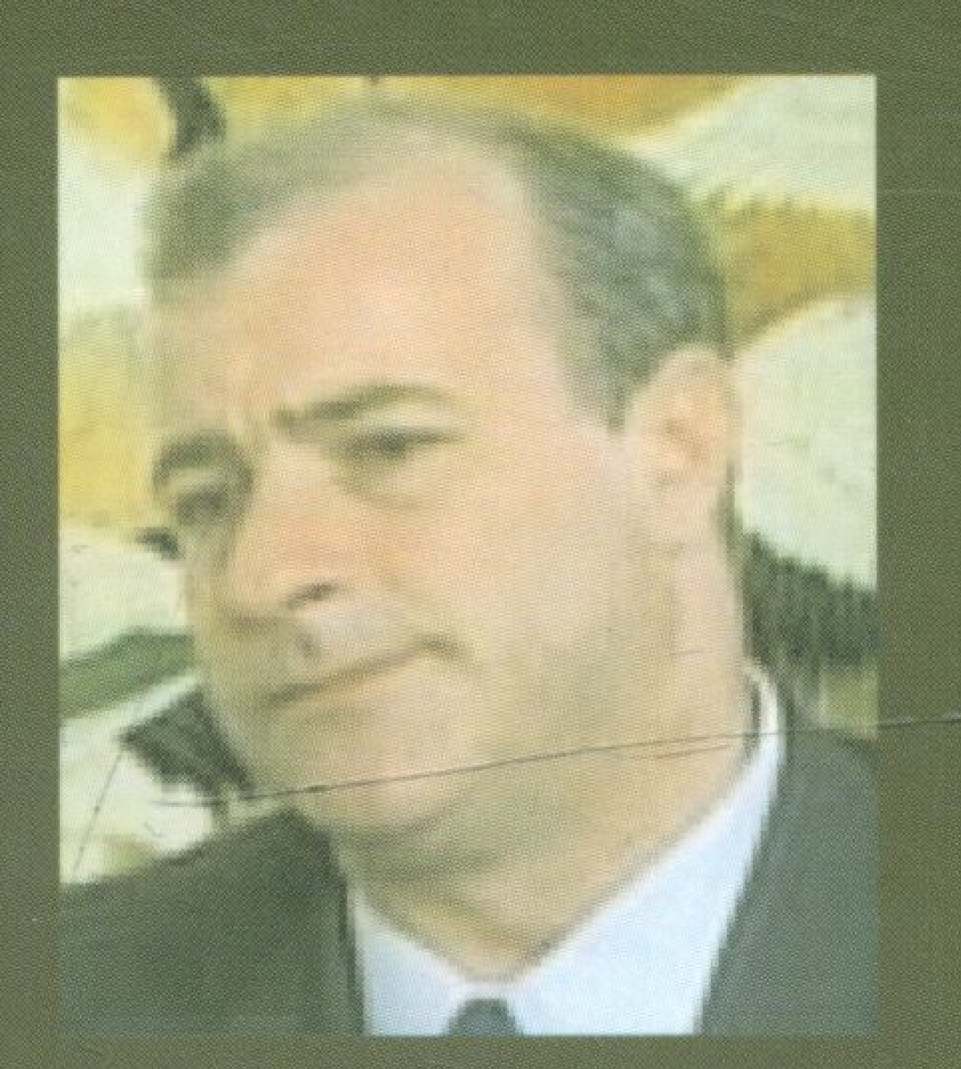
صفقة الأكاديمية كالأغلبية الساحقة من الصفقات المغرية في العراق ذهبت لشركات أمريكية عملاقة قريبة من البيت الأبيض في سرقة أمريكية مكشوفة من دليل العمل العربي.

الضباط العسكريون الأمريكيون كانوا فرحين للغاية بالمشروع الكبير لدرجة دفعت بعضهم للإعلان أن عام 2006 هو «عام الشرطة»، لكن المجندين المساكين إن نجوا من السيارات المفخخة في طريقهم إلى حصص التدريب، فعليهم مقاومة الروائح الكريهة وسوائل المجاري المتسربة من الطوابق العليا عبر سقوف «الأقسام» أو المشي فوق أرصفة متصدعة، والاستعداد للإصابة بالتفوييد أو أوبئة أخرى نتيجة الفضلات المنتشرة في كل مكان. المحققون الفيدراليون أعربوا لمراسل الواشنطن عن استغرابهم الكبير من قدرة مشروع واحد على جمع كل هذه الإخفاقات الكارثية لأنه حتى في العراق – على حد اعتقادهم – هناك حدا معقولا للفساد.

الحالة المزرية لأكبر مشروع مدني وأمني في العراق لا يختلف سوى في التفاصيل عن الهدف الاستراتيجي الكبير لتمدين العراق و«تحريره».

في اليوم نفسه الذي كشف فيه النقاب عن فضيحة الأكاديمية، أكدت القيادة العسكرية الأمريكية في العراق فوز شركة لنكولن – نفس الشركة المسؤولة عن زرع أخبار وتحاليل في الصحافة العراقية – بصفقة باثني عشر مليون ونصف المليون دولار لمساعدة القوات المسلحة الأمريكية في العراق على نيل تغطية إعلامية إيجابية لعملياتها في بلاد الرافدين.

الفهـــرس



محمد العلمي

كاتب وصحافي مغربي.

يقيم ويشتغل مراسلا معتمدا لقناة "الجزيرة"
بواشنطن (الولايات المتحدة الأمريكية)

كتابة ناعمة، فيها من روح السخرية والمداعبة ما يبعث على الابتسام والألم معا، وفيها من الخبرة الميدانية وحرص الكتابة الواصفة ما يؤهلها لترقى إلى رفعة الكتابة الصحفية الراقية، ولتغترف من روح اليوميات ومن نفس أدب السفر كي تغدو كتابة أدبية ممتعة.

إنني أحس بأن في داخل محمد العلمي أديبا مخدرا نائما ينبغي أن نوقظه بالمزيد من الإلحاح والتحفيز والصداقة. لو أنه يتفرغ ليكتب فقط مسار حياته الشخصية في سيرة ذاتية لاكتشفنا خلف بسمته العريضة المداومة تجربة حياة قاسية صنعت منه إنسانا نادرا في طيبوبته وانفتاحه وتسامحه، قادرا على العطاء والتضحية والتحمل في خدمة الآخرين.

والآن، ونحن نحتفي بصدور هذا العمل، نعلم أن كتابا آخر في طريقه نحو النشر، ويتضمن كتاباته المختلفة حول النسق السياسي الأمريكي كما عرفه وخبره وعاش عن قرب الكثير من تفاصيله ومفاصله.

لقد بدأنا ننجح في أن نجعل محمد العلمي بدوره يعيد اكتشاف نفسه. وهذه خطوة أولى في الطريق الجميل المضيء. مرحبا به كاتبا وإعلاميا مشرفا.

حسن نجمي





إخراج الغلاف : ادريس برادة

الثمن : 35 درهما